قصة علوم الحديث

حسين عبدالرّازق

تخيل :

أن شخصا في صحراء لا إنس فيها ولا شيء، استيقظَ من نومه فوجد مائدة عليها صنوف الطعام المطبوخ بمهارة ألا يهتم بأن يعرف كيف وُجِد هذا؟ و من أتى به؟ و لماذا؟.. ولو شغل لفترة بالأكل والاستمتاع به ألا يفكر بعد مدة في نفس الأسئلة؟

أيمكن أن يغفل عاقل عن مثل ذلك؟

خلقُ الإنسان

خُلق الإنسان فوجد عالما أرضا وسماء وشمسا وقمرا وجبالا وأنهارا وسُحبا ودوابًّا...

فكان يجب أن يشغله تلك الأسئلة ويُفكّر : (من صَنع هـذا؟ ولمـاذا، مـا غايتُـه ..)

ينبغي أن يحمده ويشكره، ويعلم أنه حي عليم قدير قوي حكيم لم يخلقه باطلا

لذلك كانت المقدمات في الوحي، وعلّمنا اللّهُ كيف نحمده

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

ومما جمع تلك المعاني (التفكر والنظر والمبدأ والغاية والمصير) سورة الغاشية

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾

المبدأ والغاية و الوسيلة و المصيرُ و الجزاء

مِن أين أتيْتُ؟

وهل لوجودنا غاية و حِكمةٌ؟

وكيف أعيشُ لأُحقق تلك الغاية؟

و ما مصيرُ الخلق؟ وما جزاء مَن حفظ عهد خالقه وأدّى حقَّه، وجزاء من نسي خالقه وأعرض عنه؟

هذه هي الأسئلة الكبرى

وكلُّها مترتبة على الأول

فمن آمن بأنّه – وكُلَّ ما في الكون– مخلوقٌ لخالقٍ

وهذا الوجودُ بما فيه من الإبداع لابد أن يعلم أنّ خالقه واحدٌ خالق قادر عالمٌ حكيمٌ غني، وأنه

كمخلوقٍ فقيرٌ مُحتاج جاهلٌ بما ينفعه ويضره يحتاج إلى هداية وإرشاد

وجد الانسان عالما وكونا فلابد أن يعرف أن وراءه قوة خلقت ودبّرت (لكنَّ معرفة أن اسمه اللّه

والربُّ يكون بتعليم بتعليم الرسل عليهم السلام

والذي خلقه لم يخلقه عبثا ولن يتركه سُدًى

لابد أن يهديه /يرشده للغاية من خلقه وكيف يُحققها

كيف؟

الرُّسل عليهم السلام

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾

يبعث اللّهُ للبشر واحدًا منهم يقول: أنا رسول من عند اللّه؟

ولابد أن يكون معه آياتٌ تشهد له بصدقه..

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم قَالَ: "مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْياً أَوْحَى اللّه إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

الرُّسل عليهم السلام

ومع الرسول وحيٌ من الإله يهتدي به الرسولُ ويهدي به ويُرشِد

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ﴾

الرُّسل عليهم السلام

وعن طريق ذلك الرسول يعلمُ

تفاصيلُ كل تلك الأسئلة وما يتفرعُ عنها

ويعلمُ: كيف يقوم بتلك الغاية، ويعرف الحق والباطل والخير والشر

ويعرف مصير من أطاع ومن عصى.. وغير ذلك من الجُمل و التفاصيل

إذن عندنا :

ربٌّ خالقٌ غنيٌ إلهٌ عليم حكيم قديرٌ

الإنسانُ مخلوقٌ فقيرٌ ضالٌّ

و هدًى من الإله للمخلوق عن طريق الوحي المُنزّل على بعض خلقِه المُصطفَين /الرُسل

وكلٌ ذلك ذكره العبدُ الصالحُ المجاهدُ الذي جاء من أقصى المدينة

﴿ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

كيف أتيتُ إلى الدنيا؟ ولماذا؟ وما هي وسائل المعرفة التي أميّز بها الخير من الشر والحقَ من الباطل ؟ وماذا بعد الموت؟

إن أعظمَ ما يُوفَّقُ له أنسانٌ في حياته أن يعرف الجواب عن تلك الأسئلة ويعمل بها ولها فإنه يسعد ويطمئن قلبه بقدر علمه وسعيه

والضلال والاضطراب والحيرة تحصل للإنسان بواحد من الأمور التالية :

- ألا تتفكّر أصلا ولا تنظر في الخلق ولا تسال عنه فتعيش كالأنعام
- في ظن أنك خلقت بغير رب
- أو ظنه أنه مخلوق بلا حكمة و خالقُه خلقه عبثا أو لهو أو لعبا ، وتركه سدى
- أو بلا كتاب أو هداية لذلك حمد نفسه على ذلك (الحمد للّه الذي أنزل على عبده الكتاب..(تبارك الذي نزل الفرقان)
  وأنكر على من نفوا ذلك (وما قدروا اللّه ..اذ قالوا ما انزل اللّه على بشر من شيء)
- أو لغير معاد و جزاء
- أو أن الذي خلقه لا يقدر على بعثه
- أو يعبد غير خالقه
- أو يعرف الحق ذلك كله فيُنكره ويترك العمل به ويتبع هواه

وعن هؤلاء قال اللّه تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ))

وقال ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾

وعن الذين أقروا بالخالق، وكذبوا الوحي، أو ادّعوا النبوة كذبا، أو زعموا أنهم يأتون بمثل الوحي ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾

أما من علم ذلك فتركه واتبع هواه :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

ولو بلغ إنسانُ من متاع الدنيا ما بلغ وعنده واحد من تلك الظنون فهو من شر البرية عند اللّه

وهو كالأنعام   يتمتع ويأكل

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

ولم يبق له وزن عند اللّه تعالى ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ إذ جهل أو غفل عن أعظم مطلوب

لذلك كان أعظم ما يميز المؤمن التفكر في خلق السموات والأرض والعلم بأن لها خالقا يحمد ويشكر ويتمس الهدى منه و إيمانُه باللّه وحكمتِه وخلقِه وأمرِه ورسله ووحيه وجزائه والسعيُ في طلب ذلك

فهؤلاء عند الله هم خير البرية ولا يستون أبدا بأولئك المجرمين

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾

وذكر الله تعالى الفريقين :

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وسائل المعرفة

الفطرة:

قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾

قال النبي صلى اللّه عليه وسلم: ((وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ))،

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]

وفي الحديث أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال لأشج عبد القيس: ((إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللّهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ))، قال: تَخَلَّقْتُ بِهِمَا، أَوْ جَبَلَنِي اللّهُ عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: ((بَل اللّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا)). قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى مَا يُحِبهُ اللّهُ وَرَسُولُهُ))

قال النبي صلى اللّه عليه وسلم: ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))

وسائل المعرفة

الفطرة:

قابليتها للتَّغير والتَّأثُر قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ))

وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: ((وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا))،

وقال سبحانه في كتابه العزيز: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ قال قوم لوط عليه السلام حين قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، ولما قال مشركو قريش: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾

وسائل المعرفة

الحواس :

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

وقال : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

وسائل المعرفة

القلب :

هو آلة العقل والتدبر والنظر والاعتبار قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

وقال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾

وسائل المعرفة

القلب :

لكن العقل كأيٍ وسيلة للمعرفة مثل البصر، والسمع ، ونحوها له مجال محدود لا يتعداه، فالعين مثلاً من مجالها المسموعات، مجالها المرئيات، فالعقل كذلك ليس من مجاله الغيبيات في الماضي والمستقبل ونحو ذلك مما لا يدركه العقل، والعين مهما كانت قوية فإنها عند بعد معين لا ترى، فكذلك العقل له مجال محدود، وكذلك فالعقل قد يخطأ الظن، قد يرى الخير شرًا والشر خيرًا

كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

وسائل المعرفة

القلب :

فلو تُرك الحكم للعقل وحده لحصل شرٌ عظيم كما في قوله : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ ﴾ ، فيبقى الإنسان بين ظن في الأخبار واتباع للأهواء في تصرفاته؛ لذلك جعل الله تمام الاهتداء بالوحي فهو الهدى والنور ﴾

قال تعالى : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾

وأمر سبحانه أن يكون المَرَدُّ إلى حكمه عند التنازع والاختلاف

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾

﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

وسائل المعرفة

القلب :

قال ابن تيمية رحمه اللّه : (فإن اللّه سبحانه علم ما عليه بنوا آدم من كثرة الاختلاف والافتراق، وتبايُن العقول والأخلاق، حيث خُلقوا من طبائع ذات تنافر، وابتلوا بتشعب الأفكار والخواطر، فبعث اللّه الرسل مبشرين ومنذرين ومُبيِّنين للإنسان ما يُضله ويهديه، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمرهم بالاعتصام به حذرًا من الافتراق في الدين، وحضَّهم عند التنازع على الرد إليه وإلى رسوله المبين).

وأذكى الناس عقولًا وأزكاهم نفوسًا وأحسنهم قصدًا هم رسلُ اللّه عليهم السلام

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾

وسائل المعرفة

القلب :

ومع هذا فليس اهتداءهم بمجرد ذلك بل بفضل من اللّه وبوحي من اللّه قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾

وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾

وقال يوسف عليه السلام عنه وعن آباءه : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾

وقال اللّه للنبي محمد صلى اللّه عليه وسلم: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾

وسائل المعرفة

القلب :

وقال تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾

قال سبحانه : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

وكان صلى اللّه عليه وسلم يرتجز ويقول : ((اللهم لولا أنت ما اهتدينا))

بل أمر اللّه نبيه صلى اللّه عليه وسلم أن يبين ذلك للناس :

﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾

وإنما فُضّل الأنبياء بالوحي ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾

وسائل المعرفة

العقل له دور عظيم مع الوحي:

فبالعقل والتفكر والتأمل والنظر والاعتبار يتحقق الإنسانُ من صدق النبوة وصدق الوحي كما في مثل قوله: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

فأمرهم بالنظر والتدبر والتفكر والبحث والمناظرة؛ ليتحققوا من صحة وصدق الوحي وأنه من عند الله تعالى، وقال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

ولهذا أقام النبي صلى الله عليه وسلم الحجة على قومه أول يوم بمثل ذلك قال: ((أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟)) قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: ((فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ))

وسائل المعرفة

العقل له دور عظيم مع الوحي:

وقد أيّد اللّهُ سبحانه رسله ببراهين لصدقهم قال النبي صلى اللّه عليه وسلم: ((مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ)) ،

وبالنظر في أحوال النبي صلى اللّه عليه وسلم وخلقه توصلت أم المؤمنين خديجة رضي اللّه عنها إلى أن من كان بمثل تلك الأخلاق لا يُمكن أن يُخْزِيَه اللّه أَبَدًا، فلما قال لها النبي صلى اللّه عليه وسلم: ((خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي))، قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ)) ولم تكن قد سمعت شيئًا من الوحي، وغنما علمت ذلك بعقلها وفطرتها رضي اللّه عنها.

وسائل المعرفة

العقل له دور عظيم مع الوحي:

وبعدما طرح هرقلُ أسئلةً على أبي سفيان عن حال النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وهديه ودعوته توصل إلى صدق نبوته.

وبالبحث والنظر كذلك يتوصلُ المجتهدُ إلى صحة نسبة الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو عدم صحته.

وسائل المعرفة

فإذا تحقق صدق وثبوت النقل (الوحي) جاء دور عظيم آخر للعقل مع الوحي:

وهو التدبر والاعتبار و التفقه والاستنباط منه قال النبي صلى اللّه عليه وسلم: ((من يرد اللّه به خيرًا يفقه في الدين)) ، وقال صلى اللّه عليه وسلم: ((إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر))، وجاء الحث على التدبر والتفكر والنظر والاعتبار كثيرًا.

وسائل المعرفة

والوحي إما أن يأتي بشيء مما هو من مجال العقل فهو لا يمكن أن يتعارض معه ما دام النقل صحيحًا والعقل سليمًا، بل الوحي كلما بحثت فيه وتفكرت وتأملت ازددت يقينًا في كونه صدقًا ووحيًا من عند الله لذلك أمر سبحانه:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

وقال ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾

وهو معنى قوله تعالى:

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

وقوله: ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾

وسائل المعرفة

وقد يأتي الوحيُ بشيء مما لا يدركه العقل مما ليس من مجاله وحدوده في الأخبار أو التشريع ، كالإخبار عن الغيب ونحوه، وتشريع ما تخفى حكمتُه ، ففي الأخبار مثل نعيم الجنة : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى في الحديث : ((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

وفي القصص والأخبار: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾

وسائل المعرفة

فمثل هذا يجب قبوله؛ لأن الإنسان بعقله ونظره علم صدق النبي صلى اللّه عليه وسلم فلذلك يؤمن بخبره عن الغيب، وتأمل حديث النبي صلى اللّه عليه وسلم لما ذكر لأصحابه بقرةً تتكلم، قالوا: سبحان اللّه، قال: ((فأنا أومن بذلك)) مع أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يرى ذلك، وقال: ((وأبو بكر وعمر))، ولم يكونا في ذلك المجلس، وكان شعارهما (إن كان قالها فقد صدق).

وسائل المعرفة

لاحظ: فقبول الخبر معلق على مجرد ثبوته عن النبي صلى اللّه عليه وسلم فإذا أخبر صلى اللّه عليه وسلم مثلًا عن اللّه سبحانه: ((أنه ينزل إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الآخر...)) و((أنه سبحانه في السماء))، و((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ)) ، ونحو ذلك من الغيب وجب القبول ما دام النص ثابتًا، والعقلُ قبل ورود الخبر لا يمنع، ولكنه متوقف، فإذا جاء دليل صحيح وجب على العقول القبولُ:

فانتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول.

وسائل المعرفة

ولن يتم إيمان العبد برسول من رسل اللّه عليهم السلام إلا أن يؤمن بخبره عن الغيب، فالإيمان هو: أن تأتمن المخبرَ على خبره، وإلا فلو توقَّفَ إيمانك بخبره على رؤيةِ ذلك الخبر بنفسك فلا يسمّى ذلك إيمانًا ولا يكون النبيُ حينئذٍ طريقك لتلك المعرفة، ولهذا أخذت اليهودَ الصاعقةُ لما قالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾

ولاحظ الفرق بين قولهم، وبين قول إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ .

فإذًا: لكونك قد علمت بالنظر والتأمل والاعتبار ورؤية الآيات صدق النبي صلى اللّه عليه وسلم فليكن منهجك (إن كان قالها فقد صدق).

وسائل المعرفة

تكامل العقل والوحي

هكذا فمصادر المعرفة تتكامل ولا تتعارض إذا استعملت كلًا منها في مجال وحدوده:

والعقل مهما كان ذكيًّا لا يهتدي به الإنسان بدون الوحي كما قال النبي صلى الله عليه وسلم بأمر ربه: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾، وكذلك الوحي إن لم يكن المستمع عاقلًا مريدًا للهداية قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقال عن القرآن: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾

وسائل المعرفة

والعينُ مهما كانت درجةُ إبصارها عاليةً فلن يرى صاحبُها في الغرفةِ المظلمةِ، وكذلك لو كانت الشمسُ ساطعةً والرجل أعمى فلن يرى، ومن هنا تعلم أن العقل والوحي يتكاملان ولا يتعارضان وتفهم لماذا قال مخالفوا الرسل: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

ولئن كان من يفرضُ التعارضَ بين مصادر المعرفة (الفطرة، والعقل، والإدراك الحسي، والوحي) مخطئًا فلا يقل عنه خطئًا من يُقدمُ أحدَها على الآخر، أو من يحصر المعرفة في واحد منها.

وسائل المعرفة

فالوحي هو النور وبه الهداية وبراهينها والفرقان بين الحق والباطل

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾

وقال تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾، ولأجل ذلك أمر الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أن تكون استقامته بالوحي ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾

وإنذاره ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾، وتذكيرُه ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ ﴾

وحكمه بين الناس ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾، وحذّر نبيه صلى الله عليه وسلم من مخالفة الوحي أو كتمانه ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

وقال تعالى: ﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾

وسائل المعرفة

خاتمة

إن المعرفة في الإسلام تختص بالتوافق والتكامل بين مصادرها، والمقصود بالتوافق عدم التعارض بين المصادر التي قد تشترك في الدلالة على بعض المجالات، والمقصود بالتكامل إثبات أن لكل مصدر حدوده ومجالاته التي تختص بها، بحيث تكون دلالات المصادر المختلفة متكاملة لا متعارضة.

وأساس عدم إمكان التعارض بين مصادر المعرفة: أنه إذا كانت المعرفة بأمر ما مما يختص به أحد المصادر لم يُتصور أن يُعارضه مصدر آخر؛ لأن تلك المعرفة ليست من مجالاته المعرفية حتى يمكن أن يكون له فيها دلالة تخالف دلالة المصدر الآخر، ومصدر المعرفة إنما يكون معتبرًا في حدود مجالاته لا فيما يكون خارجًا عنها، وبذا يتحقق التكامل بين مصادر المعرفة.

خاتمة

وأما إذا لم تكن المعرفة بأمر ما مختصةً بمصدر معين، بل أمكن أن تحصل به وبغيره فإنه لا يمكن أن تتعارض دلالة تلك المصادر، بل لابد أن تكون متوافقةً؛ لأن اعتبار المصدر في المعرفة إنما يقوم على أساس أن ما دل عليه لابد أن يكون حقًا؛ لأنه لو لم يقتض الدلالة على الحق، أو أمكن أن يدل على الباطل لم يكن مصدرًا للمعرفة، والحق الذي هو مقتضى دلالة مصادر المعرفة إنما يكون واحدًا، فلا يمكن أن يدل مصدر على ما يدل المصدر الآخر على خلافه..



الوحي و مقاصده
هدى
نورٌ
رُحٌ
بينات
شفاء
رحمةٌ
فرقان
إنذار
بشرى



- العلمُ بالله ومحامده
- بيانُ الإيمان
- تشريعُ الأحكام
- الموعظةُ بالقصص والأخبار
- بيانُ الجزاء

الاهتداء بالوحي يكون : بأمرين: التدبُّر والتذكُّر

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾

قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾

عَنْ عُثْمَانَ بن عفان رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((خَيْرُكُمْ (وفي لفظ: إن أفضلكم) مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)) أخرجه البخاري.

وعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: ((أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بَطْحَانَ أَوْ الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطِيعَةِ رَحِمٍ؟))، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّنَا نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: ((أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيُعَلِّمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ)) أخرجه مسلم.

وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ:

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ)) متفق عليه.

- عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ)) متفق عليه.
- وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا)) أخرجه البخاري.
- عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: ((أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ))، فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ... الحديث. أخرجه البخاري.

- وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عَمْرو، عَن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((يُقَالُ – يَعْنِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ –: اقْرَأْ وَارْتَق وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقرَأُ بِهَا)) أخرجه الترمذي وقال: ((هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ)).
- عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَن، قَالَ: حدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُول صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُمْ كانُوا ((يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُول اللَّهِ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذَا مِنَ الْعَمَلِ))، قَالَ: ((فَعَلِمْنَا الْعَمَلَ وَالْعِلْمَ)). أخرجه ابن أبي شيبة
- عَنْ جُنْدُبِ بْن عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ، ((فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا)). أخرجه ابن ماجة
- عَنْ أَبِي مُوسَى، عَن النَّبِيِّ صلي الله عليه وسلم قَالَ: ((تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا)). متفق عليه.

بيان الوحي

الأساس في بيان الوحي بأمرين :

العلمُ باللسان الذي نزل به الوحي/ لسان العرب، والعلمُ بهدي النبي صلى الله عليه وسلم

فهذا الكتاب بلسان عربي مبين ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾

وقال – تعالى –: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، وقال – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ، وقال أيضًا: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قال ابن تيمية رحمه الله: ((فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرضٌ، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به فهو واجب))

بيان الوحي

وقال: ((فإن الله تعالى لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغا عنه للكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به؛ لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط اللسان، وصارت معرفته من الدين، وصار اعتبار التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين، وأقرب إلى مشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، في جميع أمورهم، واللسان تقارنه أمور أخرى: من العلوم والأخلاق، فإن العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله وفيما يكرهه، فلهذا أيضا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين الأولين، في أقوالهم وأعمالهم، وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة.))

بيان الوحي

ويقول الإمام الشاطبي : ((القرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾

ويقول تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ ، وقال تعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ ، إلى غير ذلك مما يدل على أنه عربي وبلسان العرب، لا أنه أعجمي ولا بلسان العجم، فمن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة))

منزلة النبي صلى اللّه عليه وسلم من الوحي:

البلاغ والبيان بقوله وعمله، فهو ترجمان للقرآن كما قالت عائشة رضي الله عنها ((كان خُلقُه القرآن)) الخُلق هو الهدي والسُّنّة

وقال تعالى عنه : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

وفي الصحيحين قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي))، وقوله في بيان قوله تعالى: ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾

((خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ، وَالرَّجْمُ)).

وقوله في بيان الحج: ((لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ)).

منزلة النبي صلى اللّه عليه وسلم من الوحي:

ولذلك جاء المَنُ على الناس ببعثته، الأمر بالإيمان به، و طاعته، وأنها طاعة لله والتحذير من معصيته وأنها معصية للّه.

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

الهداية بالنبي صلى اللّه عليه وسلم

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :((إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ)).
- قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : ((مَثَلِي، وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَرَجُل بَنَى دَارًا، فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ وَيَقُولُونَ: لَوْلاً مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ)).
- فعمت رسالته العالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ، وفي الحديث: ((..وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً)).
- ومقتضى الإيمان به صلى الله عليه وسلم : ((التصديق والاتباع والطاعة))
- وطاعتُه طاعةٌ لله سبحانه، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾

الهداية بالنبي صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وفي حديث أبي موسى الأشعري في الصحيحين عَنِ النَّبِيِّ ، قَالَ: ((إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ)).

الحديث الجامع

في الصحيحين عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: ((أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)). فيه (بيانُ هديه، وأنه أحسنُ الهدي، وأنه صراطُ اللّه تعالى ومن رغبه عنه فليس منه))

اتّباعُ النبي صلى اللّه عليه وسلم

قال عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي اللّه عنه :((لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ)) ، قَالَ : فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ ، وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَأَتَتْهُ ، فَقَالَتْ : مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَيِ الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ ، فَقَالَ : لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

اتّباعُ النبي صلى اللّه عليه وسلم

وفي قوله تعالى: ﴿لقد مَنَّ اللهُ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾

قد ذهب أهل العلم والتحقيق إلى أن المراد بالحكمة سنة رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم –، قال الإمام الشافعي– رحمه اللّه –:((فذكر اللّه الكتاب وهو القرآن ، وذكر الحِكمة ، فسمعتُ مَن أرضى – مِن أهل العلم بالقرآن – يقول: الحِكمة سنة رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – وهذا يُشبه ما قال – واللّه أعلم – لأن القرآن ذُكر ، وأُتْبِعَتْه الحكمة ، وذكر اللّه مَنَّه على خلقه : بتعليمهم الكتاب والحكمة ، فلم يجز – واللّه أعلم – أن يقال الحكمة هنا إلا سنّة رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – وذلك أنها مقرونة بالكتاب ، وأن اللّه افترض طاعة رسوله – صلى اللّه عليه وسلم – ، وحتم على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لقول : فرضٌ . إلا لكتاب اللّه ثم سنة رسوله : لما وصفنا من أن اللّه جعل الإيمان برسوله مقروناً بالإيمان به ..." اهـ

اتِّباعُ النبي صلى اللّه عليه وسلم

و قال رحمه الله : " أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس " ، وقال في الأم : " لم أسمع أحداً نسبه الناس أو نسب نفسه إلى علم ، يُخالف في أن فرض الله عز وجل اتباع أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والتسليم لحكمه ، وأن الله عز وجل لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه ، وأنه لا يَلزم قولٌ بكل حال إلا بكتاب الله أو سنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – ، وأن ما سواهما تبعٌ لهما ، وأن فرض الله علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واحد لا يختلف فيه الفرض ، وواجب قبول الخبر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " .

سبيل الهدى:

قال الشافعي رحمه الله :وأنزل عليه كتابه فقال: ﴿ وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه. تنزيل من حكيم حميد ﴾ فنقلهم من الكفر والعمى إلى الضياء والهدى، وبيّن فيه ما أَحَلّ: مَنًّا بالتوسعة على خلقه، وما حَرّمَ: لما هو أعلم به من حظهم في الكفِّ عنه في الآخرة والأولى. وابتلى طاعتهم بأن تَعَبّدَهُم بقول، وعمل وإمساك عن محارمَ حَمَاهُمُوها، وأثابهم على طاعته من الخلود في جنته، والنجاة من نقمته: ما عَظُمَت به نعمته جل ثناؤه، وأَعلَمَهُم ما أَوجب لأهل طاعته.

وَوَعَظَهُم بالأخبار عمن كان قبلهم، ممن كان أكثرَ منهم أموالا وأولادا، وأطولَ أعمارا، وأحمدَ آثارا، فاستمتعوا بخلاقهم في حياة دنياهم، فأذاقهم عند نزول قضائه مناياهم دون آماله، ونزلت بهم عقوبته عند انقضاء آجالهم، ليعتبروا في أنف الأوان، ويتفهموا بِجَلِيّة التبيان، ويتنبهوا قبل رَين الغفلة، ويعملوا قبل انقطاع المدة حين لا يُعتِب مذنب، ولا تؤخذ فدية، و ﴿ تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ﴾

فكل ما أَنزل في كتابه – جل ثناؤه – رحمة وحجة، عَلِمه من علمه، وجهله من جهله، لا يعلم من جهله، ولا يجهل من علمه. والناس في العلم طبقات، موقعُهم من العلم بقدْر درجاتهم في العلم به.

فحقّ على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدِهم في الاستكثار من علمه، والصبرُ على كل عارض دون طَلَبِه، وإخلاص النية للّه في استدراك علمه نصا واستنباطا، والرغبة إلى اللّه في العون عليه، فإنه لا يُدرَك خيرٌ إلا بعونه.

فإن من أدرك علم أحكام اللّه في كتابه نصا واستدلالا، ووفقه اللّه للقول والعمل بما علِم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرِّيَب، ونَوَّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة.

فنسأل اللّهَ المبتدئَ لنا بنعمه قبل استحقاقها، المديمَها علينا مع تقصيرنا في الإتيان إلى ما أوجب به من شكره بها، الجاعِلَنَا في خير أمة أخرجت للناس: أن يرزقنا فهما في كتابه، ثم سنة نبيه، وقولا وعملا يؤدي به عنا حقه، ويوجب لنا نافلة مزيدة.

- قال الشافعي: فليست تنزل بأحد من أهل دين اللّه نازلة إلا وفي كتاب اللّه الدليلُ على سبيل الهدى فيها.

- قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾

- وقال: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾

- وقال: ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمةً وبشرى للمسلمين ﴾

- وقال: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنتَ تدري ما الكتابُ، ولا الإيمانُ، ولكن جعلناه نورا نَهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾

قصة علوم الحديث

- منذ بدء الوحي على النبي صلى اللّه عليه وسلم، وأولُ علم نشأ من علوم الحديث (علم الرّواية) – التحمل والأداء – وأولُ روايةٍ في هذا العلم سماعُ ورِوايةُ خديجة أمِّ المؤمنين رضي اللّه عنها لحديث بدء الوحي وقصة مجيء جبريل عليه السلام بأوائل سورة (اقرأ) إلى النبي في غار حراء.

في الصحيحين من طريق ابْن شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْن الزُّبَيْر، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِين أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَق الصُّبْح، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وكَانَ يَخْلُو بِغَار حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ – وَهُوَ التَّعَبُّدُ – اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِه، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِك، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: ((مَا أَنَا بِقَارِئٍ))، قَالَ: ((فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٢])) فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: ((زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي)) فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: ((لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي))... الحديث.

حرصُ الصحابة على تلقي العلم والهدى عن النبي صلى الله عليه وسلم

وقد كان النبي قد أمر صحابته الكرام بتبليغ ما علموه عنه في مثل قوله: ((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً)).

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ وَفْدَ عَبْدِ القَيْسِ لَمَّا أَتَوُا النَّبِيَّ قَالَ: ((مَن القَوْمُ؟ – أَوْ مَن الوَفْدُ؟ –)) قَالُوا: رَبِيعَةُ. قَالَ: ((مَرْحَبًا بِالقَوْمِ، أَوْ بِالوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ نَدَامَى))، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ، نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الجَنَّةَ، وَسَأَلُوهُ عَن الأَشْرِبَةِ: فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ: بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، قَالَ: ((أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ)) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ((شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ)) وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالمُزَفَّتِ))، وَرُبَّمَا قَالَ: ((المُقَيَّرِ)) وَقَالَ: ((احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ)).

حرصُ الصحابة على تلقي العلم والهدى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم

وقوله في حجة الوداع: ((فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ)).

الأمر بالتثبت والتبيّن في الأخبار

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

وقول النبي الكريم سليمان عليه السلام للهدهد : ﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

الأمر بالتثبت والتبيُّن في الأخبار

وقد تواتر عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قوله : ((مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

وفي لفظ: ((إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)).وكان التحري والتثبت من سنة النبي صلى اللّه عليه وسلم ومن أمثلة ذلك : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ : لَمَّا أَتَى مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ النَّبِيَّ صلى اللّه عليه وسلم قَالَ لَهُ : ((لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ ، أَوْ غَمَزْتَ ، أَوْ نَظَرْتَ)) قَالَ : لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ... حتى صرح النبي صلى اللّه عليه وسلم بلفظ الجماع لخطورة ما يترتب على هذه الشهادة من الرجل على نفسه ،وليعلم واقع ما حصل ؛ فيحصل التصور الصحيح ، ويأخذ الحكم المناسب له ، فإن التصور الصحيح أول مقدمة مهمة للحكم الصحيح المناسب.

و في البخاري: عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه، قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَبَا مَرْثَدٍ الغَنَوِيَّ، وَالزُّبَيْرَ بْنَ العَوَّامِ، وَكُلُّنَا فَارِسٌ، قَالَ: ((انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ المُشْرِكِينَ، مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى المُشْرِكِينَ)) فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا، حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اله عليه وسلم، فَقُلْنَا: الكِتَابُ، فَقَالَتْ: مَا مَعَنَا كِتَابٌ، فَأَنَخْنَاهَا فَالْتَمَسْنَا فَلَمْ نَرَ كِتَابًا، فَقُلْنَا: مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُجَرِّدَنَّكِ، فَلَمَّا رَأَتِ الجِدَّ أَهْوَتِ الى حُجْزَتِهَا، وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ، فَأَخْرَجَتْهُ، فَانْطَلَقْنَا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي [ص:٧٨] فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: ((مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ)) قَالَ حَاطِبٌ: وَاللَّهِ مَا بِي أَنْ لاَ أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم، أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي عِنْدَ القَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا لَهُ هُنَاكَ مِنْ عَشِيرَتِهِ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : ((صَدَقَ وَلاَ تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا)) فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالمُؤْمِنِينَ، فَدَعْنِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: ((أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟)) فَقَالَ: ((لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ؟ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ، أَوْ: فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)) فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم يُغِيرُ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، وَكَانَ يَسْتَمِعُ الْأَذَانَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا أَمْسَكَ وَإِلَّا أَغَارَ فَسَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللّهُ أَكْبَرُ اللّهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم: ((عَلَى الْفِطْرَةِ))... الحديث (صحيح مسلم)، ومن ذلك ثناءه صلى اللّه عليه وسلم على خصلتي: ((الحلم والأناة)).

نماذج من تثبت الصحابة رضي اللّه عنهم من الأخبار في عهد النبي صلى اللّه عليه وسلم وبعد وفاته

روى البخاري في صحيحه : عَنْ عُمَرَ رضي اللّه عنه ، قَالَ : كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَهِيَ مِنْ عَوَالِي المَدِينَةِ وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم ، يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ اليَوْمِ مِنَ الوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَنَزَلَ صَاحِبِي الأَنْصَارِيُّ يَوْمَ نَوْبَتِهِ، فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا، فَقَالَ : أَثَمَّ هُوَ؟ فَفَزِعْتُ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ : قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ. قَالَ : فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَإِذَا هِيَ تَبْكِي، فَقُلْتُ : طَلَّقَكُنَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم ؟ قَالَتْ : لاَ أَدْرِي، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صلى اللّه عليه وسلم فَقُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ: أَطَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ قَالَ : ((لاَ)) فَقُلْتُ : اللَّهُ أَكْبَرُ.. وفي رواية : ((اعتزل النبي صلى اللّه عليه وسلم نسائه))... الحديث.

ومن ذلك أيضًا حديث أنس في صحيح مسلم (وفود ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم ليتوثق من نقل الرسول الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى قومه)، قال ضمام: ((يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: ((صَدَقَ))، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: ((اللهُ))، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: ((اللهُ))، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: ((اللهُ))، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، آللَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: ((نَعَمْ))، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا، وَلَيْلَتِنَا، قَالَ: ((صَدَقَ))، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: ((نَعَمْ))، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا، قَالَ: ((صَدَقَ))، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: ((نَعَمْ))، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا، قَالَ: ((صَدَقَ))، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: ((نَعَمْ))، قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: ((صَدَقَ))، قَالَ: ثُمَّ وَلَّى، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: ((لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ)).

ولم يكن للكذب وجود في ذلك المجتمع الطاهر الذي خالطت بشاشةُ الإيمان قلوب أهلِه، واستنارت عقولهم بهدى اللّه،

وقد علموا الإثم العظيم فيمن كذب على النبي صلى اللّه عليه وسلم .

قَالَ عَلِيٌّ رضي اللّه عنه: ((إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم حَدِيثًا، فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ.... الحديث)). صحيح البخاري.

وقال البراء بن عازب رضي اللّه عنه : ((لَيْسَ كُلُّنَا كَانَ يَسْمَعُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم ، كَانَتْ لَنَا ضَيْعَةٌ وَأَشْغَالٌ، وَلَكِنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَكْذِبُونَ يَوْمَئِذٍ فَيُحَدِّثُ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ)) ((الجامع لأخلاق الراوي (١/ ١١٧)، والمحدث الفاصل ص٢٣٥)).

وفي صحيح البخاري: عَنِ الحَسَنِ البصري، حَدَّثَنَا جُنْدَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فِي هَذَا المَسْجِدِ، وَمَا نَسِينَا مُنْذُ حَدَّثَنَا، وَمَا نَخْشَى أَنْ يَكُونَ جُنْدُبٌ كَذَبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : ((كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فحزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللَّهُ تعَالَى: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ)).

ومن أمثلة التحري من الأخبار بعد وفاته صلى اللّه عليه وسلم :

أَنَّ ابْنَ عُمَرَ، قَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي لَيْثٍ: إِنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، يَأْثُرُ هَذَا عَنْ رَسُولِ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم فِي رِوَايَةِ قُتَيْبَةَ، فَذَهَبَ عَبْدُ اللّهِ، وَنَافِعٌ مَعَهُ، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ رُمْحٍ: قَالَ نَافِعٌ: فَذَهَبَ عَبْدُ اللّهِ وَأَنَا مَعَهُ وَاللَّيْثِيُّ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا أَخْبَرَنِي أَنَّكَ تُخْبِرُ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم نَهَى عَنْ بَيْعِ الْوَرِقِ بِالْوَرِقِ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلٍ، وَعَنْ بَيْعِ الذَّهَبِ بِالذَّهَبِ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلٍ))، فَأَشَارَ أَبُو سَعِيدٍ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى عَيْنَيْهِ وَأُذُنَيْهِ، فَقَالَ: أَبْصَرَتْ عَيْنَايَ، وَسَمِعَتْ أُذُنَايَ رَسُولَ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم يَقُولُ: ((لَا تَبِيعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ، وَلَا تَبِيعُوا الْوَرِقَ بِالْوَرِقِ، إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلٍ، وَلَا تُشِفُّوا بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا تَبِيعُوا شَيْئًا غَائِبًا مِنْهُ بِنَاجِزٍ، إِلَّا يَدًا بِيَدٍ)).

وما في الصحيحين عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، يَقُولُ: كُنَّا فِي مَجْلِسٍ عِنْدَ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، فَأَتَى أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ مُغْضَبًا حَتَّى وَقَفَ، فَقَالَ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ هَلْ سَمِعَ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: ((الِاسْتِئْذَانُ ثَلَاثٌ، فَإِنْ أُذِنَ لَكَ، وَإِلَّا فَارْجِعْ)) قَالَ أُبَيٌّ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: اسْتَأْذَنْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَمْسِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ، ثُمَّ جِئْتُهُ الْيَوْمَ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَأَخْبَرْتُهُ، أَنِّي جِئْتُ أَمْسِ فَسَلَّمْتُ ثَلَاثًا، ثُمَّ انْصَرَفْتُ. قَالَ: قَدْ سَمِعْنَاكَ وَنَحْنُ حِينَئِذٍ عَلَى شُغْلٍ، فَلَوْ مَا اسْتَأْذَنْتَ حَتَّى يُؤْذَنَ لَكَ قَالَ: اسْتَأْذَنْتُ كَمَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: فَوَاللهِ، لَأُوجِعَنَّ ظَهْرَكَ وَبَطْنَكَ، أَوْ لَتَأْتِيَنَّ بِمَنْ يَشْهَدُ لَكَ عَلَى هَذَا، فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: فَوَاللهِ، لَا يَقُومُ مَعَكَ إِلَّا أَحْدَثُنَا سِنًّا، قُمْ، يَا أَبَا سَعِيدٍ، فَقُمْتُ حَتَّى أَتَيْتُ عُمَرَ، فَقُلْتُ: قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ هَذَا)) ، وفي تذكرة الحفاظ للذهبي: إن أول من احتاط في قبول الأخبار أبو بكر رضي الله عنه.

وقال الذهبي كذلك عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هو الذي سن للمحدثين التثبت في النقل. ((تذكرة الحفاظ ١/٦)).

عن ابْنُ عُمَرَ أنه قال لِابْنِ مَسْعُودٍ وَلِأَبِي الدَّرْدَاءِ وَلِأَبِي مَسْعُودٍ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو: ((أَحْسَبُ مَا هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عنه قَالَ: وَأَحْسَبُهُ حَبَسَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَتَّى أُصِيبَ)) وفي رواية أخرى لإبراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف، عن أبيه حدثه قال: ((والله ما مات عمر رض الله عنه حتى بعث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجمعهم جميعا من الآفاق: حذيفة وابن مسعود وأبا الدرداء وأبا ذر وعقبة بن عامر فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآفاق؟!!! قالوا: أتتهمُنا قال: لا ولكن أقيموا عندي، ولا تفارقوني ما عشتُ فنحن أعلم بما نأخذ منكم، وما نرد عليكم فما فارقوه حتى مات، فما خرج ابن مسعود إلى الكوفة ببيعة عثمان إلا من سجن عمر))

((مسند الفاروق لابن كثير)).

عَنْ قَرَظَةَ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: خَرَجْنَا فَشَيَّعَنَا عُمَرُ، إِلَى صِرَارٍ ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَالَ: ((أَتَدْرُونَ لِمَ خَرَجْتُ مَعَكُمْ؟)) قُلْنَا: أَرَدْتَ أَنْ تُشَيِّعَنَا تَكَرُّمًا بِذَلِكَ، قَالَ: ((إِنَّ مَعَ ذَلِكَ لِحَاجَةً خَرَجْتُ لَهَا، إِنَّكُمْ تَأْتُونَ بَلْدَةً لِأَهْلِهَا دَوِيٌّ بِالْقُرْآنِ كَدَوِيِّ النَّحْلِ فَلَا تَصُدُّوهُمْ بِالْأَحَادِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَنَا شَرِيكُكُمْ)) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٩٨).

و خطب مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى هَذَا الْمِنْبَرِ، مِنْبَرِ دِمَشْقَ يَقُولُ: أَقِلُّوا الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَأَنْتُمْ تَتَحَدَّثُونَ لا مَحَالَةَ، فَإِنْ كُنْتُمْ مُتَحَدِّثِينَ فَتَحَدَّثُوا بِمَا كَانَ يُتَحَدَّثُ بِهِ فِي عَهْدِ عُمَر بْنِ الْخَطَّابِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُخِيفُ النَّاسَ فِي اللَّهِ. الكامل في ضعفاء الرجال (١/ ٨٢).

قال الطحاوي معلقًا على هذه الآثار: فَقَالَ قَائِلٌ: فَمَا وَجْهُ هَذَا الَّذِي رُوِّيتُمُوهُ عَنْ عُمَرَ، وَهُوَ إِمَامٌ رَاشِدٌ مَهْدِيٌّ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَقِفُ النَّاسُ عَلَى مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَّا بِمَا يُحَدِّثُهُمْ بِهِ أَصْحَابُهُ عَنْهُ، وَفِيمَا كَانَ مِنْ عُمَرَ مَا يَقْطَعُهُمْ عَنْ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ مِنْهُ؟.

(قال الطحاوي): فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ عُمَرَ كَانَ مَذْهَبُهُ حِيَاطَةَ مَا يُرْوَى عَنْ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم ، وَإِنْ كَانَ الَّذِينَ رَوَوْهُ عُدُولًا، إِذْ كَانَ عَلَى الْأَئِمَّةِ تَأَمُّلُ مَا يُشْهَدُ بِهِ عِنْدَهُمْ، مِمَّنْ قَدْ ثَبَتَ عَدْلُهُ عِنْدَهُمْ، فَكَانَ عُمَرُ فِيمَا يُحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم مِمَّا لَا يَحْفَظُهُ عَنْهُ كَذَلِكَ أَيْضًا، وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِأَبِي مُوسَى مَعَ عَدْلِهِ عِنْدَهُ، فِيمَا حَدَّثَ بِهِ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مِمَّا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فِي الِاسْتِئْذَانِ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَّا فِي كِتَابِنَا هَذَا، وَقَدْ وَقَفَ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَمَنْ سِوَاهُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم الَّذِينَ وَقَفُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْهُ، وَلَمْ يُنْكِرُوهُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُخَالِفُوهُ فِيهِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى مُوَافَقَتِهِمْ إِيَّاهُ عَلَيْهِ ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَعَلَ فِي أُمُورِ الَّذِينَ كَانَ مِنْهُ فِي حَبْسِهِمْ مِمَّا كَانَ فَعَلَهُ فِي ذَلِكَ لِهَذَا الْمَعْنَى، لَا لِأَنْ يَقْطَعَهُمْ عَنِ التَّبْلِيغِ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم النَّاسَ مَا قَدْ سَمِعُوهُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه قَبْلَهُ فِي مِثْلِ هَذَا...

(إلى أن قال): وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَا كَانَ مِنَ الَّذِينَ حَبَسَهُمْ فِيمَا كَانَ حَبَسَهُمْ فِيهِ لِتَجَاوُزِ مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْ أَمْثَالِهِمْ، حَتَّى خَافَ أَنْ يَقْطَعُوا النَّاسَ بِذَلِكَ، وَيَشْغَلُوهُمْ بِهِ عَنْ كِتَابِ اللهِ تَأَمُّلِهِ، وَالِاسْتِنْبَاطِ لِلْأَشْيَاءِ مِنْهُ، مِمَّا فِيهِ تَعْلُو مَرْتَبَةُ الْمُسْتَنْبِطِينَ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ يَقْرَؤُهُ بِقَوْلِهِ)) : لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ((، وَلِذِكْرِهِ سِوَاهُمْ مِمَّنْ يَقْرَؤُهُ بِمَا سِوَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ((لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ، إِلَّا أَمَانِيَّ ((، أَيْ إِلَّا تِلَاوَةً، فَلَمْ يَحْمَدْ ذَلِكَ مِنْهُمْ، كَمَا حَمِدَ أَهْلَ الِاسْتِنْبَاطِ عَلَى الِاسْتِنْبَاطِ. شرح مشكل الآثار (١٥/ ٣١٣).

وقال الخطيب البغدادي: إِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا وَجْهُ إِنْكَارِ عُمَرَ عَلَى الصَّحَابَةِ رِوَايَتَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَتَشْدِيدُهُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ؟ قِيلَ لَهُ: إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ عُمَرُ احْتِيَاطًا لِلدِّينِ، وَحُسْنَ نَظَرٍ لِلْمُسْلِمِينَ. لِأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْكُلُوا عَنِ الْأَعْمَالِ وَيَتَّكِلُوا عَلَى ظَاهِرِ الْأَخْبَارِ، وَلَيْسَ حُكْمُ جَمِيعِ الْأَحَادِيثِ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَلَا كُلُّ مَنْ سَمِعَهَا عَرَفَ فِقْهَهَا. فَقَدْ يَرِدُ الْحَدِيثُ مُجْمَلًا، وَيُسْتَنْبَطُ مَعْنَاهُ وَتَفْسِيرُهُ مِنْ غَيْرِهِ. فَخَشِيَ عُمَرُ أَنْ يُحْمَلَ حَدِيثٌ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ، أَوْ يُؤْخَذَ بِظَاهِرِ لَفْظِهِ والْحُكْمُ بِخِلَافِ مَا أُخِذَ بِهِ وَنَحْوٌ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى الْحَدِيثُ الْآخَرُ....

وكَذَلِكَ نَهَى عُمَرُ الصَّحَابَةَ أَنْ يُكْثِرُوا رِوَايَةَ الْحَدِيثِ إِشْفَاقًا عَلَى النَّاسِ أَنْ يَنْكُلُوا عَنِ الْعَمَلِ اتِّكَالًا عَلَى الْحَدِيثِ. وَفِي تَشْدِيدِ عُمَرَ أَيْضًا عَلَى الصَّحَابَةِ، وَفِي رِوَايَتِهِمْ حِفْظٌ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، وَتَرْهِيبٌ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنْ يُدْخِلَ فِي السُّنَنِ مَا لَيْسَ مِنْهَا، لِأَنَّهُ إِذَا رَأَى الصَّحَابِيَّ الْمَقْبُولَ الْقَوْلِ، الْمَشْهُورَ بِصُحْبَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَدْ تُشُدِّدَ عَلَيْهِ فِي رِوَايَتِهِ، كَانَ هُوَ أَجْدَرُ أَنْ يَكُونَ لِلرِّوَايَةِ أَهْيَبَ، وَلِمَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي النَّفْسِ مِنْ تَحْسِينِ الْكَذِبِ أَرْهَبَ. ((شرف أصحاب الحديث)) (٨٨ – ٩١).

و في البخاري من حديث بن عباس رضي الله عنهما قال: ... فَجَلَسَ عُمَرُ عَلَى المِنْبَرِ، فَلَمَّا سَكَتَ الْمُؤَذِّنُونَ قَامَ، فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً قَدْ قُدِّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا، لاَ أَدْرِي لَعَلَّهَا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِي، فَمَنْ عَقَلَهَا وَوَعَاهَا فَلْيُحَدِّثْ بِهَا حَيْثُ انْتَهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، وَمَنْ خَشِيَ أَنْ لاَ يَعْقِلَهَا فَلاَ أُحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيَّ: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم بِالحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ... الحديث)).

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى التابعي الكبير الثقة: ((أَدْرَكْتُ عِشْرِينَ وَمِائَةً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، أُرَاهُ قَالَ: فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ مُحَدِّثٌ إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْحَدِيثَ، وَلَا مُفْتٍ إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْفُتْيَا)). ((الزهد والرقائق لابن المبارك)).

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: قُلْتُ لِلزُّبَيْرِ: إِنِّي لاَ أَسْمَعُكَ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَمَا يُحَدِّثُ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ؟ قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أُفَارِقْهُ، وَلَكِنْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: ((مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)). أخرجه البخاري.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: لَوْلَا أَنْ أَخْشَى أَنْ أُخْطِئَ لَحَدَّثْتُكُمْ بِأَشْيَاءَ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ،لَكِنَّهُ قَالَ: ((مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)). ((مسند أحمد))

وهذا عبد الله بن مسعود وأبو الدرداء رضي الله عنهما، وهما مِمّن حبس عُمر بالمدينة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم للحديث كما سبق، كانا إذا أراد أحدهما الحديثَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارْتَعَدَ فزعًا، واغرورقت عيناه، وقال: ((أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريبًا منه، أو شبيهًا بذلك))!! ورعًا ورهبةً من تَبِعَةِ الزيادة أو النُّقصان!!!

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله وهو يتحدث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ((... وَهُوَ الثِّقَةُ الصَّدُوقُ. فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم كَمَا أَنَّ أَمْثَالَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ ثِقَاتٌ صَادِقُونَ فِيمَا يُخْبِرُونَ بِهِ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، وَأَصْحَابُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. مِنْ أَصْدَقِ النَّاسِ حَدِيثًا عَنْهُ، لَا يُعْرَفُ فِيهِمْ مَنْ تَعَمَّدَ عَلَيْهِ كَذِبًا، مَعَ أَنَّهُ كَانَ يَقَعُ مِنْ أَحَدِهِمْ مِنَ الْهَنَاتِ مَا يَقَعُ وَلَهُمْ ذُنُوبٌ وَلَيْسُوا مَعْصُومِينَ، وَمَعَ هَذَا فَقَدَ جَرَّبَ أَصْحَابُ النَّقْدِ. وَالِامْتِحَانِ أَحَادِيثَهُمْ وَاعْتَبَرُوهَا بِمَا تُعْتَبَرُ بِهِ. الْأَحَادِيثُ، فَلَمْ يُوجَدْ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ تَعَمُّدُ كِذْبَةٍ، بِخِلَافِ الْقَرْنِ الثَّانِي فَإِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِ الْكُوفَةِ جَمَاعَةٌ يَتَعَمَّدُونَ الْكَذِبَ.

وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٍ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ، حَتَّى كَانُوا يَنْفِرُونَ عَنْ مُعَاوِيَةَ إِذَا حَدَّثَهُمْ عَلَى مِنْبَرِ الْمَدِينَةِ يَقُولُونَ: وَكَانَ لَا يُتَّهَمُ فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم .... حِفْظًا مِنَ اللَّهِ لِهَذَا الدِّينِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ أَحَدٌ الْكَذِبَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَّا هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَهُ وَكَشَفَ أَمْرَهُ، وَلِهَذَا كَانَ يُقَالُ: لَوْ هَمَّ رَجُلٌ بِالسَّحَرِ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَأَصْبَحَ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ: فُلَانٌ كَذَّابٌ.

وَقَدْ كَانَ التَّابِعُونَ بِالْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالشَّامِ وَالْبَصْرَةِ لَا يَكَادُ يُعْرَفُ فِيهِمْ كَذَّابٌ، لَكِنَّ الْغَلَطَ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ بشْرٌ، وَلِهَذَا يُقَالُ: فِيمَنْ يَضْعُفُ مِنْهُمْ وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: تَكَلَّمَ فِيهِ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ، أَيْ مِنْ جِهَةِ سُوءِ حِفْظِهِ فَيَغْلَطُ فَيَنْسَى، لَا مِنْ جِهَةِ تَعَمُّدِهِ لِلْكَذِبِ. ((منهاج السنة النبوية)) (٢/ ٤٥٦ – ٤٥٩).

تعظيم الصحابة لأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

روى سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ، أَنَّ عَبْدَ اللّهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: ((لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمُ الْمَسَاجِدَ إِذَا اسْتَأْذَنَّكُمْ إِلَيْهَا)) قَالَ: فَقَالَ بِلَالُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ: وَاللّهِ لَنَمْنَعُهُنَّ، قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللّهِ: فَسَبَّهُ سَبًّا سَيِّئًا مَا سَمِعْتُهُ سَبَّهُ مِثْلَهُ قَطُّ وَقَالَ: ((أُخْبِرُكَ عَنْ رَسُولِ اللّهِ وَتَقُولُ: وَاللّهِ لَنَمْنَعُهُنَّ)) صحيح مسلم (١/ ٣٢٧).

ومنه: أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ حَدَّث، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ فِي رَهْطٍ، وَفِينَا بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ، فَحَدَّثَنَا عِمْرَانُ، يَوْمَئِذٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم : ((الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ)) قَالَ: أَوْ قَالَ: ((الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ)) فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ: إِنَّا لَنَجِدُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ – أَوِ الْحِكْمَةِ – أَنَّ مِنْهُ سَكِينَةً وَوَقَارًا لِلَّهِ، وَمِنْهُ ضَعْفٌ، قَالَ: فَغَضِبَ عِمْرَانُ حَتَّى احْمَرَّتَا عَيْنَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أَرَى أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم ، وَتُعَارِضُ فِيهِ، قَالَ: فَأَعَادَ عِمْرَانُ الْحَدِيثَ، قَالَ: فَأَعَادَ بُشَيْرٌ، فَغَضِبَ عِمْرَانُ، قَالَ: فَمَا زِلْنَا نَقُولُ فِيهِ إِنَّهُ مِنَّا يَا أَبَا نُجَيْدٍ، إِنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ. صحيح مسلم (١/ ٦٤).

مراجعة الصحابة بعضهم بعضًا في الأخبار، واستدراك بعضهم على بعض :

روى عِكْرِمَةَ، أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَرَّقَ قَوْمًا، فَبَلَغَ ابْنَ عَبَّاس فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحَرِّقْهُمْ لِأَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((لاَ تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ))، وَلَقَتَلْتُهُمْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ)). صحيح البخاري (٤/ ٦١).

ومنه: عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو مُوسَى، يُشَدِّدُ فِي الْبَوْلِ، وَيَبُولُ فِي قَارُورَةٍ وَيَقُولُ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا أَصَابَ جِلْدَ أَحَدِهِمْ بَوْلٌ قَرَضَهُ بِالْمَقَارِيضِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: ((لَوَدِدْتُ أَنَّ صَاحِبَكُمْ لَا يُشَدِّدُ هَذَا التَّشْدِيدَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي أَنَا وَرَسُولُ اللهِ نَتَمَاشَى، فَأَتَى سُبَاطَةً خَلْفَ حَائِطٍ، فَقَامَ كَمَا يَقُومُ أَحَدُكُمْ، فَبَالَ، فَانْتَبَذْتُ مِنْهُ، فَأَشَارَ إِلَيَّ فَجِئْتُ، فَقُمْتُ عِنْدَ عَقِبِهِ حَتَّى فَرَغَ)). صحيح مسلم (١/ ٢٢٨).

ومنه: عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ: بَلَغَ عَائِشَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو يَأْمُرُ النِّسَاءَ إِذَا اغْتَسَلْنَ أَنْ يَنْقُضْنَ رُءُوسَهُنَّ. فَقَالَتْ: يَا عَجَبًا لِابْنِ عَمْرٍو هَذَا يَأْمُرُ النِّسَاءَ إِذَا اغْتَسَلْنَ أَنْ يَنْقُضْنَ رُءُوسَهُنَّ. أَفَلَا يَأْمُرُهُنَّ أَنْ يَحْلِقْنَ رُءُوسَهُنَّ، ((لَقَدْ كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ. وَلَا أَزِيدُ عَلَى أَنْ أُفْرِغَ عَلَى رَأْسِي ثَلَاثَ إِفْرَاغَاتٍ)). صحيح مسلم (١/ ٢٦٠).

فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي اللّه عنه وآثارها على قبول الأخبار :

وكان من أكبر آثار فتنة مقتل عثمان رضي اللّه عنه، ظهور بعض الفرق المخالفة لما كان عليه النبي صلى اللّه عليه وسلم .

عندها بدأت دواعي التقوُّل على النبي صلى اللّه عليه وسلم تظهر لأغراض متنوعة

لكنّ الصحابة رضي اللّه عنهم قد سبقوا ذلك بما يقتضيه من التثبت في الرواية.

المنهج النقدي في هذه الحِقبة :

عن مجاهد، قال: جاء بُشَير العدوي إلى ابن عباس، فجعل يُحدث، ويقول: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فجعل ابن عباس لا يأذنُ لحديثه، ولا ينظر إليه، فقال: يا ابنَ عباس، مالي لا أراك تسمع لحديثي، أحدِّثك عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ولا تسمع، فقال ابن عباس:

رضي اللّه عنه: إِنَّا كُنَّا مَرَّةً إِذَا سَمِعْنَا رَجُلًا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم ، ابْتَدَرَتْهُ أَبْصَارُنَا، وَأَصْغَيْنَا إِلَيْهِ بِآذَانِنَا، فَلَمَّا رَكِبَ النَّاسُ الصَّعْبَ، وَالذَّلُولَ، لَمْ نَأْخُذْ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا نَعْرِفُ))

فكان هذا أول تطبيق عملي ظاهر لعلم نقد الرواة (الجرح والتعديل)، وأول السؤال عن الإسناد، ورفض المراسيل، وذلك لظهور عِلَّتين اقتضت ذلك، هما عِلّتا: رواية المجروح من ليس أهلًا لتقبل روايته إما من جهة (العدالة أو الضبط)، والإرسال وعدم الإسناد( )، وفي الواقع، فإن علّة الإرسال عائدة إلى العلة الأولى، لأن عدم قبول المرسل إنما كان، لاحتمال كون المحذوف مجروحًا.

وقد أرّخ بداية نشوء هذين العلمين (علم الإسناد، وعلم الجرح والتعديل) من علوم الحديث، أحدُ أئمة التابعين، وهو محمد بن سيرين [ت: ١١٠هـ]، عندما قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سمّوا لنا رجالكم، فيُنظر إلى أهل السنّة فيُؤخذ حديثهم، ويُنظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم)).

وعن حُمَيْد بْن عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ يُحَدِّثُ رَهْطًا مِنْ قُرَيْشٍ بِالْمَدِينَةِ – وَذَكَرَ كَعْبَ الأَحْبَارِ – فَقَالَ : إِنْ كَانَ مِنْ أَصْدَقِ هَؤُلاءِ الْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . وَإِنْ كُنَّا مَعَ ذَلِكَ لَنَبْلُوَ عَلَيْهِ الْكَذِبَ .

و عن سعيد بن جُبير قال : قلتُ لابنِ عبَّاسٍ : إنَّ نَوفًا البِكاليَّ يزعمُ أنَّ موسَى صاحبَ بني إسرائيلَ ليسَ بموسَى صاحبِ الخَضرِ ، قالَ : كذبَ عدوُّ اللَّهِ ، سمِعتُ أُبيَّ بنَ كعبٍ ، يقولُ : سمِعتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ يقولُ : قامَ موسَى خطيبًا في بني إسرائيلَ ، فسُئِلَ : أيُّ النَّاسِ أعلمُ ؟ فقالَ : أنا أعلمُ ، فعَتبَ اللَّهُ علَيهِ إذ لم يردَّ العلمَ إليهِ ، فأوحَى اللَّهُ إليهِ أنَّ عبدًا مِن عبادي بمَجمعِ البحرينِ هوَ أعلمُ منكَ ، قالَ موسَى أيْ ربِّ ، فَكَيفَ لي بهِ ؟ فقالَ لَهُ : احمِل حوتًا في مِكْتلٍ فحيثُ تفقدُ الحوتَ فَهوَ ثمَّ ، فانطلقَ وانطلقَ معَهُ فتاهُ وَهوَ يوشَعُ بنُ نونٍ فجعلَ موسَى حوتًا في مِكْتلٍ ، فانطلقَ هوَ وفتاهُ يمشيانِ حتَّى إذا أتَيا الصَّخرةَ... الحديث (متفق عليه)

ومن هنا يظهر أن الصحابة رضي الله عنهم، كانوا أول من بدأ بإنشاء ما عُرف بعدُ بـ (علوم الحديث ومصطلحه).

فائدة :

المكثرون من رواة الحديث من الصحابة رضي اللّه عنهم:

- أبو هريرة
- عبداللّه بن عمر بن الخطاب
- أنس بن مالك
- أم المؤمنين عائشة
- عبداللّه بن عباس
- جابر بن عبداللّه الأنصاري
- عبداللّه بن مسعود
- عبداللّه بن عمرو بن العاص
- أبو موسى الأشعري
- سعد بن مالك بن سنان "أبو سعيد الخدري" الأنصاري

عصر التابعين

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- نشأة المقالات والفرق
- دواعي الكذب
- طول الإسناد
- اعتناء أئمة النقد من التابعين بضرورة التثبت في التحمل والأداء، وما يقتضيه من مقدمات علمي الرجال والعِلل، وقول الإمام ابن سيرين ((العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم))
- ظهور مصطلحات مثل (الإسناد، المرسل)
- تدوين الروايات بأمر من الخليفة عمر بن عبدالعزيز وكانت خلافته سنة (٩٩ هـ) إلى سنة (١٠١ هـ) حين وفاته رحمه الله
- ظهور بالتعبير عن حال الرواية والراوي، وعن أوصافه بألفاظ أصبحت مصطلحاتٍ ذات دلالةٍ عُرفيّة بين أهل الحديث.
- نلاحظ قوّة علاقة الدلالات الاصطلاحيّة للكلمة بالمعنى اللغوي الأصليّ لها، وكمثال: مصطلحا (الإسناد) و(الإرسال)
- من أئمة طبقة التابعين المكثرون رواية وأصحابا: ابن سيرين–الحسن البصري–الشعبي– وعكرمة – سالم بن عبد الله بن عمر – الزهري – إبراهيم النخعي –قتادة–عمرو بن دينار–ثابت البناني–الأعمش– أبو إسحاق السبيعي–يحي بن أبي كثير

عصر أتباع التابعين

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- زيادة الوسائط
- تشعُّب الأسانيد
- وقوع اختلاف في الرواية في الإسناد أو المتن
- تصنيف السنن والآثار ، ومنها : ((كتاب السنن، والطهارة، والصلاة، والتفسير والجامع)) لابن جريج، و ((السنن والمغازي))لابن إسحاق، و ((الجامع)) لمعمر بن راشد، و ((الموطأ، والسنن))لابن أبي ذئب، ((السنن، والتفسير)) لسعيد بن أبي عروبة، و ((السنن، والجامع الكبير، والجامع الصغير، والفرائض، والاعتقاد)) لسفيان الثوري، و ((السنن، والزهد، والتفسير، والقراءات، والمناقب)) لزائدة بن قدامة، و((السنن)) لحماد بن سلمة. و((الموطأ)) لمالك بن أنس، و ((المسند، والزهد والجهاد)) لعبدالله بن المبارك، و ((السنن في الفقه، والمغازي)) لهُشيم بن بشير، و ((السير)) لأبي إسحاق الفزاري

عصر أتباع التابعين

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- ظهور مصطلحات حديثية للتعبير عن الراوي أو الرواية أو الكتاب المدوّن فيه الأحاديث، وتداولها الصحيح، والضعيف، والمرفوع، والموقوف، والمرسل، والمنقطع، والمتصل، والمنكر، والشاذ، والمضطرب، والباطل، وما لا أصل له، والتدليس، والتلقين، وحكمه، وغير ذلك: من طرق التحمل وألفاظ الجرح والتعديل ومراتبها، وغيرهما.
- أبرز أئمة هذا العصر في الحديث من حيث الرواية والنقد والتصنيف : شعبة بن الحجاج، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، والليث بن سعد، وعبد اللّه بن المبارك، وهُشيم بن بشير، وسفيان بن عيينة، وعبد اللّه بن وهب، ووكيع بن الجراح، ومحمد بن إدريس الشافعي، ويزيد بن هارون الواسطي، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني.
- بل وفي هذا العصر: الإمامان الكبيران: يحيى بن سيعد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي.
- التصنيف في قواعد علم الحديث، وذلك في أواخر هذا العصر، على يد الإمام الشافعي، بما سطّره في كتابيه التأسيسيين: ((الرسالة)) و ((جِماع العلم))
- كان هذا العصر، بما ع فيه من تطوّر عظيم في علوم الحديث ومصطلحه، مقدمة للعصر الذي تلاه: العصر الذهبي لعلوم الحديث

علوم الحديث في القرن الثالث الهجري

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- انتشار مجالس التحديث في مختلف الأمصار بشكل واسع
- تدوين الأحاديث والآثار فهذا العصر هو عصر أصول السنّة وأمهات الدين، فهو عصر: مسند الإمام أحمد، والكتب الستة، ومنها: الصحيحان وهما أصح كتب الحديث.وهو عصر أصول السنة، من مسانيد، وجوامع، وسنن، وعلل، وتواريخ، وأجزاء، وغير ذلك، بل ما انقضى هذا القرن، إلا والسنّة جميعها مدّونة
- اعتبر الإمام الذهبي رأسَ سنة ثلاثمائة الحدّ الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين، ورأى بذلك أنه من سنة ثلاثمائة: انقرض عهد الرواة الذين يروون ما لا يوجد في الدنيا مكتوبًا إلا في محفوظ صدورهم، ولم يبق – بعد أولئك – إلا المحدثون المقيّدون للسماعات على النسخ الحديثية. ((الميزان)) (١/ ٤).
- تدوين السنة جميعها بانتهاء القرن الثالث، هو ما جعل الأئمة بعد ذلك يتخفّفون من شروط الراوي والرواية (أي في العدالة والضبط)، لأن الغرض من الرواية أصبح الإبقاء على خصيصة الإسناد لهذه الأمة، ونصّ على ذلك التخفُّف أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، و كذلك الإمام البيهقي ونقل ذلك عنه أبو عَمرو ابن الصلاح، فمن جاء بعده، ووافقوه وأيّدوه.

علوم الحديث في القرن الثالث الهجري

- كل تطور في التدوين والنقد لابد أن يصحبه تطور في سائر علوم الحديث ومصطلحه خاصّة
- أئمة العصر الذين جهد عظيم في خدمة السنة، في نقل الروايات ونقدها، وبيان عِلَل الأسانيد والمتون، والجرح والتعديل؛ حاويًا بين طيّاته مصطلحات القوم جميعها، لأدلّ على أن هذا العصر كما أنه قد خُتم فيه على تدوين السنّة، فقد ختم فيه أيضًا على مصطلحاتها، وبلغت قمّة تطورها.

افتُتح هذا العصر بشيوخ الإسلام الثلاثة، وأئمة المحدّثين قاطبة: أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني.

ومن الأئمة: الحميدي عبد الله بن الزبير، وسعيد بن منصور المروزي، وأبي عبد القاسم بن سلّام، ومحمد بن سعد، وأبي خيثمة زهير بن حرب، ومحمد بن عبد الله بن نمير، وأبي بكر ابن أبي شيبة، وإسحاق بن راهويه، وخليفة بن خياط العُصْفري، ودُحيم عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي، وأحمد بن صالح المصري وعمرو بن علي الفلاس، وعبد الله بن عبد الرحمن الدرامي، وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني الدمشقي، ومحمد بن يحيى الذهلي.

و الإمام الكبير، شيخ الصنعة: محمد بن إسماعيل البخاري، وأبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي، والعجلي أحمد بن عبد الله بن صالح، وأبي حاتم محمد بن إدريس الرازي، ومسلم بن الحجاج صاحب ثاني أصح كتاب بعد كتاب الله ﷻ، ويعقوب بن شيبة، وأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، وأبي عيسى الترمذي: محمد بن عيسى، ومحمد بن يزيد بن ماجه، ويعقوب بن سفيان الفسوي، وأحمد بن زهير بن حرب المعروف بابن أبي خيثمة.

علوم الحديث في القرن الثالث الهجري

فأبي زرعة الدمشقي عبد الرحمن بن عمرو، وابن أبي عاصم أحمد بن عمر النبيل، وعبد الله بن أحمد بن حنبل، وصالح بن محمد جزرة، وأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، ومحمد بن نصر المروزي، وأبي القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي.

فأبي عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الإسفراييني، وأبي بكر أحمد بن هارون البرديجي، ثم إمام العلل أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، وأبي يعلى أحمد بن أحمد بن حماد الدولابي، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، ومحمد بن جرير الطبري، وأبي جعفر محمد بن عَمرو العقيلي. وأختم هذه الطبقة بأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس: ابن أبي حاتم الرازي. فهؤلاء وأقرانهم: عُمدةُ الشريعة، الذين حفظ الله بهم الدين!!

- **ظهرت في هذا العصر بعض الكتابات التنظيرية لبعض علوم الحديث ومصطلحاته.**

ومن أوائل ذلك جزءٌ صغير نفيس لأبي بكر عبد الله بن الزبير الحُميدي، رواه عنه بشر بن موسى بن صالح الأسدي، ونثره الخطيب البغدادي في كتابه (الكفاية في علم الرواية)، من روايته عن أبي نعيم الأصبهاني، عن أبي علي محمد بن أحمد بن الحسن الصوّاف، عن بشر بن موسى، عن الحميدي.

وكتب الإمام مسلم بن الحجاج مقدمة لـ(الصحيح)، وعرض فيها لبعض قضايا علوم الحديث بقوّة ووضوح، و((التمييز للإمام مسلم)) أهم ما كتب في العلل من حيث طرق كشف علة الحديث

علوم الحديث في القرن الثالث الهجري

وكتبَ أيضًا الإمام أبو داود السجستاني (رسالته إلى أهل مكة) مُتَعرضًا فيها لمنهجه في كتابه ((السنن))، ولمسائل من علوم الحديث.

ثم كتب أيضًا الإمام الترمذي كتابًا سمّاه بـ(العلل)، وعُرف بعد ذلك بـ(العلل الصغير)، تكلّم فيه عنه بعض الاصطلاحات المهمة المشكلة، وعن بعض قواعد علوم الحديث، بكلام نفيس، مما حدا بالحافظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، أن يعتني بشرحه عقب شرحه لجامع الترمذي، واشتهر شرح ابن رجب لعلل الترمذي، وأصبح بعد ذلك من أهمّ مصادر (أصول الحديث).

- وجوب الحِفاظِ على ما خَلَّفه أولئك الأئمه والاعتناء بجمعه وفقهه واستنباط القواعد منه والعلم بمصطلحاتهم ودلالاتها، والعلم بمنهجهم في النقد واتباعه

القرن الرابع الهجري

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- بالغُ الثراء بذلك الإرث العظيم الذي خلّفه له القرن الثالث في مجال علوم الحديث، ومصطلحه
- اكتمال تدوين السنة جميعها فيه قال ابنُ المرابط أبو عمرو محمد بن أبي عمرو عثمان بن يحيى الغرناطي: قد دونت الأخبار، وما بقي للتجريح فائدة، بل انقطع على رأس أربعمائة ((فتح المغيث)) (٤/ ٣٦٣).
- والأرجح أنه تمّ في القرن الثالث
- من أئمة العصر في الحديث وعلومه: أبي علي الحسين بن علي بن يزيد النيسابوري، وأبي حاتم محمد بن حبان البستي، وأبي القاسم سليمان ابن أحمد الطبراني، وأبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي، وأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، وأبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني، وأبي الشيخ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، وأبي بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الإسماعيلي، وأبي أحمد محمد بن محمد بن أحمد الحاكم الكبير، وحافظ الدنيا الناقد أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني، وأبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين، وأبي عبد اللّه محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده، وأبي عبد اللّه محمد بن عبد الله بن البيّع النيسابوري الحاكم، وعبد الغني بن سعيد الأزدي المصري، وأختم هذه الطبقة: بأبي نعيم أحمد بن عبد اللّه بن أحمد الأصبهاني.
- ظهور بوادر ضعفٍ في الحديث وعلومه

القرن الرابع الهجري

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- وقد أرّخ الإمامُ الذهبي بداية نقص علوم السنة، وبداية ظهورِ علم الكلام، وتناقض الاجتهاد، وظهور التقليد، ويصف أبو عبد اللّه بن محمد بن بن بطة العكبري الحنبلي تزايدَ النقص في طلب العلم وصفًا معبرًا، حيث يقول: كنا نحضر في مجلس أبي بكر النيسابوري عبد اللّه بن محمد بن زياد، لنسمع منه الزيادات، وكان يحزر أن في المجلس ثلاثين ألف محبرة، ومضى على هذا مدة يسيرة، ثم حضرنا مجلس أبي بكر النجاد أحمد بن سلمان بن الحسن الحنبلي، وكان يُحْزر أن في مجلسه عشرة آلاف محبرة، فتعجّب الناس من ذلك، وقالوا: في هذه المدّة ذهب ثلثا الناس؟!!!
- هذا الضعف الناشئ في هذا القرن، هو الذي جعل بعض أئمة هذا القرن يُسارعون إلى تصنيف كتبٍ جامعةٍ مُفردةٍ في علوم الحديث ومصطلحه.
- وأجل ما كتب في علوم الحديث خلال هذا القرن: كتاب المحدث الفاصل بيب الراوي والواعي للرامهرمزي، ومعرفة علوم الحديث للحاكم.
- وكتب غير هذين الإمامين في هذا القرن في علوم الحديث أيضًا، لكنها كتاباتٌ غير مقصودةٍ من كاتبيها بالأصالة، وإنما مقدماتٌ لبعض كتبهم
- وقد أكد كل من الرامهرمزي والحاكم ما ذكرناه آنفًا، من أن هذا القرن كان قد شهد بداية الضعف في علوم الحديث

القرن الرابع الهجري

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- قال الإمام الذهبي، معبرًا عن تناقص علم الحديث عبر العصور: فلقد تفانى أصحاب الحديث، وتلاشو وتبدل الناس بطلبة يهزأ بهم أعداء الحديث والسنة ويسخرون منهم، وصار علماء العصر في الغالب عاكفين على التقليد في الفروع، من غير تحرير لها، ومكبين على عقليات من حكمةِ الأوائل وآراء المتكلمين، من غير أن يتعقّلوا أكثرها، فعمّ البلاء، واستحكمت الأهواء، ولاحتْ مبادئ رفع العلم وقبضه من الناس!!!! ((تذكرة الحفاظ)) (٢/ ٥٣٠).
- نشأة علم الكلام وأثره على علوم الشريعة
- إن عصر المأمون الخليفة العباسى (ت ٢١٨) ليعتبر بحق أقوى عصور ترجمة علوم الأوائل أى كتب الفلسفة وأكثر مبالغة في ذلك
- ولم يؤثر علم المنطق والفلسفة في العصور الذهبية للسنة لسببين رئيسين:

١- قوة علوم السنة ورسوخها

٢- وضوح التنافر بين علوم السنة وعلم الكلام (من حيث مصدر التلقي ومنهج الاستدلال والنتائج) فالتنافر بين العلمين علوم السنة وعلم الكلام من حيث المصدر والمبدأ وطرق الاستدلال والأثر لكل من العِلمين منع الاندماج بينهما

القرن الرابع الهجري

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- لما دخل القرن الرابع الهجرى بدأ هذان العائقان بالضعف مما فتح ثغرةً للعلوم العقلية بالتأثير على علم الكلام، وقد شهد هذا القرن (الرابع) تقهقراً في العلوم السنية مع تزينه بأعلام وأئمة كأبى على الحسين بن على النيسابورى، وابن حبان البستى، والطبرانى، والرامهرمزى، والآجرى، وابن عدى، وأبى الشيخ الأصبهانى، والحاكم، والحافظ الإمام على بن عمر الدارقطنى، وابن شاهين، وابن منده، ومحمد ابن عبد الله ابن البيع النيسابورى الحاكم، وأمثال هؤلاء العلماء.

- وقد أرَّخ الإمام الذهبى بداية نقص علوم السنة وظهور علم الكلام وتناقص الاجتهاد وظهور التقليد، وأنه بدأ من أواخر القرن الثالث الهجرى ولم يزل في زيادة، وقد قال ﷺ : (مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعةِ أَنْ يَظْهرَ الجَهْلَ وَيَقلَّ العِلمُ)، قال الإمام الذهبى معبراً عن هذا التناقص عبر العصور: ((فلقد تفانا أصحاب الحديث وتلاشوا وتبدل الناسُ بطلبة يهزأ بهم أعداءُ الحديث والسنة ويسخرون منهم وصار علماء هذا العصر في الغالب عاكفين على التقليد في الفروع من غير تحرير لها ومُكَبِّين على عقليات من حكمة الأوائل وآراء من المتكلمين من غير أن يتعقلوا أكثرها. فعمَّ البلاء، واستحكمت الهواء ولاحت مبادىء رفع العلم وقبضه من الناس"!! ((تذكرة الحفاظ)) (٢/ ٥٣٠).

- (ظاهرة التمايز الواضح بين الفقهاء والمحدثين) ولم تكن معروفة قبل بهذه المثابة

القرن الرابع الهجري

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- يصف لنا ذلك أبو سليمان حمد بن محمد الخطابى (ت ٣٨٨) في مقدمة كتابه ((معالم السنن)) (١/٥ - ١٠)، يقول:
- ((ورأيت أهلَ العلم في زماننا (القرن الرابع) قد حصلوا حزبين وانقسموا فرقتين:
- أصحاب حديث وأثر
- وأهل فقه ونظر
- وكل واحدة منها لا تتميز عن أختها في الحاجة ولا تستغني عنها في درك ما تنحوه من البغية والإرادة ...إلى أن قال: ووجدت هذين الفريقين على ما بينهم من التداني في المحلين والتقارب في المنزلتين وعموم الحاجة من بعضهم إلى بعض، وشمول الفاقة اللازمة لكل منهم إلى صاحبه = إخواناً متهاجرين و على سبيل الحق بلزوم التناصر والتعاون غيرَ متظاهرين.

القرن الرابع الهجري

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- فأما هذه الطبقة الذين هم أهل الحديث والأثر: فإن الأكثرين إنما وكدُهم الروايات وجمع الطرق وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذي أكثره موضوع أو مقلوب. لا يراعون المتون ولا يتفهمون المعاني .... إلى أن قال: وأما الطبقة الأخرى وهم أهل الفقه والنظر: فإن أكثرهم لا يعرجون من الحديث إلا على أقله ولا يكادون يميزون صحيحَه من سقيمه، ولا يعرفون جيدَه من رديئه ... إلى أن قال: ولكن أقواماً استوعروا طريق الحق واستطالوا المدة في درك الحظ، وأحبوا عُجالة النيل فاختصروا طريقَ العلم واقتصروا على نتف منتزعة عن معاني أصول الفقه سَموها عِللاً وجعلوها شعاراً لأنفسهم في الترسُّم برسم العلم وجعلوها جُنة عند لقاء خصومهم، ونصبوها ذريعةً للخوض والجدال ... إلى أن قال: هَذا وقد دسَّ لهم الشيطان حيلة لطيفة وبلغ منهم مكيدة بليغة، فقال لهم: هذا الذى في أيديكم علمٌ قصير وبضاعة مزجاة لا تفي بمبلغ الحاجة والكفاية فاستعينوا عليه بالكلام وصِلوه بمقطَّعات منه واستظهروا بأصول المتكلمين( ) = يتسع لكم مذهب الخوض ومجال النظر، فصدَّق عليهم ظنَّه وأطاعه كثيرٌ منهم واتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين. فيا للرجال والعقول! أنى يُذهب بهم؟! وأنى يختلهم الشيطان عن حظهم وموضع رشدهم، والله المستعان". اهـ معالم السنن للخطابى (١/ ٥ -١٠).

القرن الرابع الهجري

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- مما أمدَّ المعتزلةَ بمدد جديد وبوجه جديد أيضاً يُظهر المعتزلة في صورة الفقهاء العلماء بالفروع ثم بالأصول كذلك.
- شعور المحدثين بضرورة مواجهة هذا المد الاعتزالي، فواجهه أئمةُ السنة المحققون بالحديث وعلومه مواجهة قوية دليلاً واستدلالاً بمثل كتب السنة والتوحيد والعقيدة، وبالتحذير من علم الكلام وأهله وبحَثِّ الناس على تعلُّم السنة، وتمام التلقي لها على وجهها، وأولُ مصنَّف جامع مفرد في علم السنة (علوم الحديث) بلغنا صنَّف بغرض مواجهة تلك الطعنات في علوم السنة كما صرح بذلك مصنِّفه الرامهرامزي (صاحب المحدث الفاصل بين الراوي والواعي) والتسمية وحدها كافية للإلمام بموضوع الكتاب، وبالغاية من تصنيفه. (انظر ص١٨٥).
- قصور المحدثين عن مواجهة المعتزلة قادهم إلى إنعاش مذهب كلامي قديم، وهو مذهب ابن كُلّاب:
- (عبد الله بن سعيد القطان البصرى ت ٢٤٥) لأنه مذهب تجرد للرد على الجهمية
- مذهب ابن كلاب كما هي العادة فيمن أراد أن يمزج بين علمين متنافرين (علم الكتاب والسنة وعلم الفلسفة اليونانية) لم يستطع التخلص من أوضار علم الكلام و أضراره، فلا هو قرر عقيدة السلف ولا هو قرر عقيدة المعتزلة

القرن الرابع الهجري

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- حذر الإمام أحمد من مذهب ابن كلّاب وعابه وذمه، وقد كان مذهب ابن كلاب في عصر أئمة الحديث كأحمد ابن حنبل وأمثاله رحمهم اللّه لا فرصة له في الانتشار فبقى محصوراً في بعض من مالوا إلى علم الكلام ولم يتسع وجوده.
- وأرخ بداية هذا التأثر حادثة مشهورة وقعت عام ٣٠٩ه بين ابن خزيمة وبعض تلامذته ممن تأثر بمذهب ابن كلاب، فاجتمع سببا الضعف (ضعف علوم السنة، وضعف وضوح التنافر بين العلمين) فدخل علمُ الكلام على بعض المحدثين من هذا الباب: باب مواجهة المعتزلة .
- قال الخطابى في مقدمة كلامه (الغُنيه عن الكلام وأهله): ((وقفتُ على مقالتك وما وصفَته من أمر ناحيتك، وظهور ما ظهر بها من مقالات أهل الكلام، وخوض الخائضين فيها وميل بعض منتحلى السُّنة إليها واغترارهم بها واعتذارهم في ذلك بأن الكلام وقاية السنة وجُنة لها يُذُّب به عنها، ويُذاد بسلاحه عن حريمها".
- وفى هذه الفترة التي ظهر فيها تأثر جماعة من المحدثين بابن كلاب وهى عام ٣٠٩هـ أعلن أبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل (٢٦٠ – ٣٢٤) رُجوعَه عن مذهب الاعتزال، وألَّف وناظرَ وجادل في نقده، وقد كان رأساً في الاعتزال نحو أربعين سنة، ثم توسط بين مذهب السلف والاعتزال، كما كان قد توسط بينهما ابن كلاب، وهو معدودٌ في أصحاب مذهب ابن كلاب.

القرن الرابع الهجري

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- وفي الوقت ذاته تقريباً ظهر مؤسس الماتريدية (أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندى ت ٣٣٣) وهو داخل في الكلابية أيضاً وعلى منهجها في التوسط بين السلف والمعتزلة باعتماد علم الكلام
- ولا شك أن الكلابية من أشعرية وماتريدية وغيرهم نجحوا بما وافقوا فيه السلف في الرد على المعتزلة
- مما زاد من اتساع مذهبهم وتكثير عدد متبعيه، وخاصة الأشعري الذي كان في دار الخلافة (بغداد) وله تصانيف كثيرة مع تمتعه بسعة علم بالكلام والجدل والمناظرة وشهرته برجوعه عن الاعتزال بعدما كان رأساً فيه (وكان كثير من الناس يظن أنه ما ثم إلا سُنِّيّ أو معتزليّ).
- قال القاضي عياض بن موسى اليحصبى المالكي (ت ٥٤٤ه) في كتابه ترتيب المدارك(١): ((فلما كثرت تواليفه وانتُفع بقوله وظهر لأهل الحديث والفقه ذبُّه عن السنن والدين تعلّق بكتبه أهل السنة وأخذوا عنه ودرسوا عليه وتفقهوا في طريقه وكثر طلبته وأتباعُه لتعلم تلك الطرق في الذب عن السنة وبسط الحجج والأدلة في نصر الملة".

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- وقد قال شيخ الإسلام (ت٧٢٨هـ): ((ولهذا وافقتهم في بعض ما ابتدعوه كثير من أهل الفقه والحديث والتصوف لوجوه:

أحدها: كثرة الحق الذي يقولونه، وظهور الآثار النبوية عندهم .

الثاني: لبسهم ذلك بمقاييس عقلية بعضها موروث عن الصابئة وبعضها مما ابتدع في الإسلام، واستيلاء ما في ذلك من الشبهات عليهم، وظنهم أنه لن يُمكن التمسك بالآثار النبوية من أهل العقل والعلم إلا على هذا الوجه.

الثالث: ضعفُ الآثار النبوية الدافعة لهذه الشبهات الموضحة لسبيل الهدى عندهم.

الرابع: العجز والتفريط الواقع في المنتسبين إلى السنة والحديث تارة يروون ما لا يعلمون صحته وتارة يكونون كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الأمور"أهـ.

- وانتشر مذهبه لا سيما عند الشافعية وما مضى على وفاته إلا أقل من ستين سنة حتى انتشر مذهبه في العراق كله ثم الشام، وقد مر أبو الحسن بمراحل من اعتزالية إلى كُلابية إلى أن ألف كتابه ((الإبانة)) في أواخر حياته وهو أقرب كتبه إلى مذهب السلف، لكن مع ذلك كان إمامَ المتكلمين ويدافع عن علم الكلام

القرن الرابع الهجري

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- موازنة سريعة بين مصنفات الأشعرى كـالإبانة ومقالات الإسلاميين ومصنفات ، تظهر فرقاً واضحاً بين مؤسس المذهب وأتباعه من المتأخرين، متأخرى المتكلمين (أشعرية وغيرهم) كـ((شرح المقاصد)) للتفتازانى سعد الدبن مسعود بن عمر (ت ٧٩٣ه) وقبله مؤلفات الجوينى كـ((الشامل)) و((لمع الأدلة)) و((الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الإعتقاد)) لا في المسائل المقررة فحسب بل وفى منهج الاستدلال أيضاً، فالأخيرة أغرقت بعيداً في علم الكلام أكثر من الأشعرى إمام المتكلمين في عصره.
- كان لذلك من الأثر أَنْ كان للأشعرية في انسياقها لعلم الكلام اتجاهان:
- الاتجاه الأول: فيه اعتناء بإثبات مسائله بأدلة الكتاب والسنة مع الاعتناء بعلم الكلام وهذا يمثله الأشعرية المحدثون كالبيهقى (أحمد بن الحسين ت٤٥٨)، في كتبه (الأسماء والصفات، والاعتقاد، والقدر).
- والثانى: مغرقٌ في علم الكلام قليل الاعتناءُ بأدلة الكتاب والسنة ويمثل هذا الأشعرية الفقهاء من أمثال أبى بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣) والجوينى قبل انتسابه إلى مذهب السلف قبيل وفاته
- وكان للمذهب الأشعري وغيره من المذاهب الكلامية تأثير على العلوم الإسلامية، ولم يكن على درجات متساوية فليست أصول الفقه في تأثرها مثل أصول علوم الحديث ولا شك أن عمق التأثير لم يزل يزداد على العلوم الإسلامية كلها لكننا نستفيد من التقرير السابق أن القرن الرابع الهجري فيه ظهور أثر علم الكلام على السُّنة غير أن أثر تلك المذاهب أخذ في الظهور خلال القرون اللاحقة قرناً بعد الآخر.

القرن الرابع الهجري

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- ومن المعروف عند المصنفين أن الإمام الشافعي (ت٤٠٢) هو أول من صنف في أصول الفقه من خلال كتابه الرسالة (وإن لم يكن قد سماه أصول الفقه) وغيره من مصنفاته الأصولية الأخرى كجماع العلم وغيره. وعلى هذا فلو بقيت كتب أصول الفقه على منهج الرسالة لما كانت لتؤثر أثراً سلبياً على علوم السنة –أقول: لو!!– فإنه لا خلاف بين المؤرخين لعلم الأصول أن اعتماد المصنفات فيه بعد الرسالة على المصنفات التالية:
- العمد: للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ت٤١٥) وهو شافعي المذهب في الفروع.
- المعتمد: لأبى الحسين البصري المعتزلي (ت٤٣٦) وهو ممن زعم أنه حنفي الفروع ولا دليل على ذلك.
- البرهان: لأبى المعالي الجويني (ت٤٧٨) وهو من أئمة الشافعية، واتبع الأشعري في مذهبه بل زاد وغلى أكثر منه، وخلط الأشعرية بالفلسفة والاعتزال.
- المستصفى: لأبى حامد الغزالي (ت٥٠٥) وهو شافعي بل من أئمة الشافعية، أشعري إلى قبيل وفاته.
- ثم جمع شتات مصنفات الأصول من بعد هؤلاء، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦) في كتابه المحصول في علم الأصول، وفعل نحوه أبو الحسن سيف الدين على بن أبى محمد بن سالم الآمدى وهو شافعى أشعرى (ت٥٣١) في كتابه ((الإحكام)).
- هذه الأسماء أنها لمعتزلة أولاً ثم لأشاعرة! ولذلك أثر واضح

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- ومع أن الشافعي قد حذّر من علم الكلام إلا أن منهج من صنَّف في أصول الفقه من أتباعه مخالفٌ لمنهجه فيه كل المخالفة، حتى اصطلح على تسمية ذلك المنهج للتصنيف في أصول الفقه بطريقة المتكلمين،
- وأصول الفقه تدرس – فيما تدرس – السنة النبوية وكثيرًا من علومها، باعتبار أن الحديث النبوي هو بيان القرآن الكريم.
- وإذا درس (المتكلمون) علوم الحديث، على (طريقة المتكلمين) ومنهجهم، وهم أبعد الناس عن الاختصاص وأهله: (المُحدِّثين)= فماذا يُتوقع من دَارِس ليس من أهل الاختصاص، يدرس العلم بمنهج غريبٍ عنه، ويدرسه بقواعدَ نظرية: لا علاقة لها بالواقع العملي، ولا معرفة لها بالممارسة التطبيقية؟!
- كان الواجبُ ترْكَ الاختصاص لأهله؛ فإذا تكلّم فيه غَيْرُهُم – كما وقع فعلًا – أن يُقدَّر هذا الكلام بقَدْرِه، فلا يُنْصَب كأنه كلامٌ قرين لأهل الاختصاص؛ فضلًا عن أن يُقدَّم على كلامهم؛ أو أن يُأَوَّلَ كلامُ أهل الاختصاص ليوافقَ كلامَ غيرهم إذا خالفهم! وهذا أخطر من الترجيح الصريح؛ لأنه يُوهِمُ أن ذلك الكلام الذي قرره غيرُ أهل الاختصاص هو كلامُ أَهْلِهِ وتقريرهم أيضًا!!
- و الأخطر من ذلك كله، هو التأثير الذي عمَّ الأوساط العلمية كلّها، ولم يَنْجُ منه كبيرُ أحدٍ من العلماء، على تمايُزٍ بينهم في درجة ذلك التأثُّر، بالمنهج الذي كُتبت به أصول الفقه (طريقة المتكلمين).

القرن الرابع الهجري

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- وأثر علمي المنطق والكلام على علوم الشريعة كبير ومتنوع ، وكان لأصول الفقه بمنهج المتكلمين أثرٌ على علوم الحديث من خلال نافذتين للتأثير:

الأولى (وهي مباشرة): من خلال دراسة كتب أصول الفقه للسنة وعلومها، بمنهجها الكلامي. وقد بيّنّا سابقًا القَدْرَ الذي يجب عليه الاستفادة من هذه الدراسة لعلوم السنّة، وأشرنا إلى التفريط الواقع في هذا الصَّدد.

الثانية (وهي غير مباشرة): من خلال المنهج الذي بثّته في الأوساط العلميّة، وأثرِ المنطق اليوناني الذي شبّعت به أساليب التفكير والتأليف لدى العلماء

من خصائصه المتعلقة بعلوم الحديث:

- وأثر علمي المنطق والكلام على علوم الشريعة كبير ومتنوع ، وكان لأصول الفقه بمنهج المتكلمين أثرٌ على علوم الحديث من خلال نافذتين للتأثير:

الأولى (وهي مباشرة): من خلال دراسة كتب أصول الفقه للسنة وعلومها، بمنهجها الكلامي. وقد بيّنّا سابقًا القَدْرَ الذي يجب عليه الاستفادة من هذه الدراسة لعلوم السنّة، وأشرنا إلى التفريط الواقع في هذا الصَّدد.

الثانية (وهي غير مباشرة): من خلال المنهج الذي بثّته في الأوساط العلميّة، وأثرِ المنطق اليوناني الذي شبّعت به أساليب التفكير والتأليف لدى العلماء

شرفُ دراسة علوم الحديث

و أدبُ طالبِ الحديث:

طلب العلم الشرعي عموما من أفضل الأعمال و أشرفها و من الطُرق المُوصلة إلى الجنة ، قال النبيّ صلى اللّه عليه و سلم :

((من يُرد اللّه به خيرا يُفقّهه في الدين)) (رواه البخاري و مسلم)

و قال : ((مَن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل اللّهُ له به طريقا إلى الجنة)) (رواه مسلم)

وعلم الحديث هو الاشتغال بما رُوِيَ عن النبي صلى اللّه عليه و سلم (قولا ، و فعلا ، و صفة ، و إقرارا)، ثم آثار الصحابة ، و مَن بعدهم (جمعا ،و دراسة ، و نقدا ، و نشرا).و كفاه بهذا شرفا .

وهو (مع العلم بالقرآن) أحقّ ما يمكن أن تُقضى فيه الأوقات و تُبذل فيه الجهود .

و في مثل ذلك :

يقول الإمام البخاريّ – رحمه اللّه – لتلميذه و كاتبِ صحيحه الذي خشي البخاريُّ أن يكون قد مَلّ و تعِب من كثرة الإملاء :

((طِب نفسًا

فإن أهل الملاهي في ملاهيهم ، و أهلَ الصناعات في صناعاتهم ، و التُّجّار في تجارتهم و أنت مع النبيّ صلى اللّه عليه و سلم و أصحابه)). (ترجمة البخاري من : سير أعلام النبلاء).

- و النّاس في العلم بسُنته ، و هديه صلى اللّه عليه و سلّم ، و الاهتداء بها، و تعليمها درجاتٌ و منازل ، يُبيّنها هذا الحديث الجليل :

عَنْ أَبِي مُوسَى ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ :

((مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْت به))

و قال النبيّ صلى اللّه عليه و سلّم :

((نضَر اللّهُ امرأً سمِع مِنّا شيئًا فبلّغه كما سمع ، فرُبَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع)) (رواه الترمذي و قال : حسن صحيح). قال الحاكم – رحمه اللّه – ((لو لم يكن في فضل العلم إلا هذا وحده لكفى به شرفا ، فإن النبي صلى اللّه عليه و سلم دعا لمن سمع كلامه و وعاه و حفظه و بلّغه)) (المستدرك ١/٨٨).

و قال الأعمش(أحدُ أئمة الحديث) :

((لا أعلم للّه قومًا أفضل من قومٍ يطلبون هذا الحديث ، و يُحبّون السُّنّة ، و كَم أنتم في النّاس ؟ لأنتم أقلُّ من الذّهب !))

(كتاب :المُحدِّث الفاصل ص١٧٧)

مِن خُلُقِ طالب علوم الحديث :

- صلاحُ النيّة في طلب علوم الحديث و غيره ، فالأعمال بالنيّات ، فينوي الطالب خيرا ، و يبتغي وجه اللّه ، و العلم بدينه و بسُنة نبيه صلى اللّه عليه و سلم
- يُجاهد نفسه في العمل بها .
- ينوِي تعليمَ الناس و دعوتهم و نشر السُّنة الصحيحة بالحكمة و الموعظة الحسنة.
- يتواضعُ بما علّمه اللّه و يقصد رحمة الناس به ، فلا يَبْغ و لا يستطل و لا يستعل بعلمه ، فلقد كان صاحبُ السُّنة صلى اللّه عليه و سلم رحيمًا ، خافضًا جناحه للمؤمنين ، قال تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ و قال اللّه تعالى : ﴿ بِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ،قال النبي صلى اللّه عليه و سلم : ((ما تواضع أحدٌ للّه إلا رفعه)) (رواه مسلم).
- التحلّي بالأخلاق الحسنة ، و في ذلك يقول أبو عاصم النبيل (أحد أئمة الحديث) : ((مَن طلبَ الحديث فقد طلب معالي الأمور فيجب أن يكون خير النّاس)) (جامع بيان العلم لابن عبد البرّ ١/٧٨)

مِن خُلُقِ طالب علوم الحديث :

- و قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللّهُ :و الواجب أن يكون طلبة الحديث
- أكمل الناس أدبًا
- وأشد الخلق تواضعًا
- وأعظمهم نزاهة وتدينًا
- وأقلهم طَيشًا وغضبًا
- لدوام قرْع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول اللّه ﷺ وآدابه وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته وأصحابه وطرائق المحدثين ومآثر الماضين فيأخذوا بأجملها وأحسنها ، ويصدفوا عن أرذلها وأدونها . كتاب (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)
- فشرف طلب (علوم الحديث) لا يكون بمجرد طلبه و إنما بطلبه و العمل به و التخلّق بأخلاقه ، و قد قال النبي صلى اللّه عليه و سلم : ((مَن بطّأ به عملُه لم يُسرِع به نسبُه)) (رواه مُسلم)

أهميّة دراسة علوم الحديث :

- بما أنه العلم الذي يُدرس فيه قواعد الحكم على الرواة و الروايات فهو أحد أهم ما يحتاجه الباحث الشرعي ، و الفقيه ، و المُفسّر ، والدّاعي و غيرهم من المشتغلين بالعلم الشرعي و التاريخ و نحوه لأن أساسَ فقه الحديث و الاستنباط منه مبنيٌّ على صحّة الحديث .
- التمكّن من نشر السُّنة الصحيحة .
- التحذير من الأحاديث الضعيفة و المكذوبة ، و ذكر البدائل الصحيحة من السّنة.
- هو مِن طرق الدعوة إلى الله على بصيرة.
- قال الإمام أحمد –رحمه الله – : ((ما أعلمُ النّاس اليوم في زمان أحوج منهم إلى طلب الحديث من هذا الزّمان ، فقِيل له : لِمَ؟ قال : ظهرت البِدعُ ، فمن لم يكن عنده حديثٌ وقعَ فيها)) (الآداب الشرعيّة لابن مُفلح ٢/١٢٦)
- وقال الحاكم –رحمه الله –عن سبب تأليفه ل(كتاب معرفة علوم الحديث) : ((لما رأيت البدع في زماننا كثرت ومعرفة الناس بأصول السنن قلت مع إمعانهم في كتابة الأخبار وكثرة طلبها على الإهمال والإغفال= دعاني ذلك إلى تصنيف كتاب خفيف يشتمل على ذكر أنواع علم الحديث مما يحتاج إليه طلبة الأخبار والمواظبون على كتابة الآثار...)
- فإن كان هؤلاء الأئمة الذين كان زمانُهم مليئا بأئمة الحديث و نُقّاده ، و مع ذلك يتحدّثون عن أهمية طلب علوم الحديث = فنحنُ بلا شك أحوج إلى ذلك منهم بكثير .

من ثمرات دراسة علوم الحديث:

- تعلُّم سُنن النبي صلى اللّه عليه و سلم و آثار الصحابة و من بعدهم من التابعين و فِقهها .
- التمكُّن – إن شاء اللّه – من دراسة الأحاديث و الآثار : جمعًا ، و تحقيقًا ، و دراسةً ، و حُكمًا.
- هو أكثرُ العلوم دخولًا في أبواب العلم ، فدراستُه تُعدُّ سببًا رئيسا في التمكُّن العلمي .
- الدعوة إلى اللّه على بصيرة ، و نشر السُّنة الصحيحة ، و بيان الأحاديث الضعيفة و ردُّها ، و ذكر ما يُغني عنها من الأحاديث الثابتة

موضوع ((علم الحديث)) و أهم أبوابه

له تعريفات كثيرة مفادها : أنه علم يُعنى بقواعد تخص الراوي والرواية ، أو السند والمتن.

هو علم يختص بدراسة وبحث الأخبار المنقولة بإسناد سواء انتهى الإسناد إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو من دونه ، وهو أبواب كثيرة، منها :

١- الدراسة النظرية ((علم مُصطلح الحديث)) ، يتعرف فيها الطالب على مسائل وأبواب علم الحديث ، والمصطلحات المستعملة في العلم ودلالاتها .

٢-علم الرجال (الجرح والتعديل) يتعرف فيه الطالب على : نشأة العلم ومشروعيته ، وآداب النقد عند الأئمة ، ومَن هم المعتبرون المعتمد قولهم في نقد الرواة، وشروط الناقد ، ومناهج النقاد ، وقواعد الجرح والتعديل ، والألفاظ المعبر بها عن حال الراوي ودلالاتها ، وكُتب الجرح والتعديل ومناهجها ، وكيفية عمل ترجمة للراوي ، إلى غير ذلك من مسائل العلم.

٣-علم ((عِلل الحديث)) وفيه يتعرف على نشأة العلم ونقد الروايات ، قواعد النقد والتعليل ، والأئمةِ المعتبرين في الباب ومناهجهم ، والألفاظ المعبر بها عن حال الراية ودلالاتها ، وكتب العلل ومناهجها ، و التدريب على دراسة الحديث دراسةً شاملة .

موضوع ((علم الحديث)) و أهم أبوابه

٤- مصادر تدوين السنة (الكتب التي جمعت الأحاديث والآثار بإسناد) ويتعرف على أنواعها، وكيفية البحث والإفادة منها،و شروط مُصنِّفيها ، فيعرف : (الجوامع، السنن، الآثار، المسانيد، الأجزاء الحديثية، المستدرك، المستخرج، الزوائد، التخريج، العلل، التواريخ، التراجم، الموضوعات، السُؤالات ، المسائل، وغيرها من طرق تصنيف الحديثي، وينبغي أن يحرص على حفظ قدرٍ كبير من الأحاديث.

٥- علم تخريج الحديث : جمع طرق الرواية

٦- فقه الحديث : شرحُ السُّنن و الآثار

المُحَدِّث

هو راوي الحديث، وظيفته أن ينقل ما تحمله ، ووصفُه بأنه ثقة، يعني أنه يُؤدي الحديث كما تحمله.

أما طالب الحديث

فوظيفته – حتى يكون متخصصًا– أن يدرس ما تقدم من فروع علم الحديث، مع العلم بفقه الحديث، فإن كثيرًا من علل الحديث إنما تظهر بفقه الحديث، ولا نقصد أن يكون مدققًا فقيهًا صرفًا، ولكن عنده علم يفقه به مراد الحديث فإن ذلك مما يعينه على نقده، وهكذا كان أئمة المحدثين، ومن ذلك:

قَال أَحْمَد بْن سَلَمَة النَّيْسَابُورِيّ: (سمعت إسحاق بْن إِبْرَاهِيم يَقُول: كنت ألتقي بالعراق مع يحيى بْن مَعِين وخلف يعني ابْن سالم وأصحابنا، وكنا نتذاكر الحديث من طريقين وثلاثة، ثم يَقُول يحيى بْن مَعِين: وطريق كذا، وطريق كذا، فأقول لهم: أليس قد صح بإجماع منا؟ فيقولون: نعم، فأقول: ما تفسيره؟ ما مراده؟ ما فقهه؟ فيبقون كلهم إلا أَحْمَد بْن حنبل، فإنه يتكلم بكلام لَهُ قوي)

((تهذيب الكمال في أسماء الرجال)) (١/ ٤٥٧).

وَقَال عَبد اللَّهِ بْن أَحْمَد بْن حنبل: (حضر قوم من أصحاب الحديث فِي مجلس أَبِي عاصم الضحاك بْن مخلد، فَقَالَ لهـم: ألا تتفقهـون وليس فيكم فقيه؟! فجعل يذمهم، فقالوا: فينا رجل، فَقَالَ: من هو؟ فقالوا: الساعة يجئ، فلما جاء أَبِي، قَالُوا: قد جاء، فنظر إليـه، فَقَالَ لَهُ: تقدم، فقال: أكره أن أتخطى الناس، فَقَالَ أَبُو عاصم: هذا من فقهه واحد، فَقَالَ: وسعوا لَهُ، فوسعوا، فدخل، فأجلسـه بـين يديه، وألقى عَلَيْهِ مسألة، فأجاب، وألقى ثانية فأجاب، وثالثة فأجاب، ومسائل فأجاب، فَقَالَ أَبُو عاصم: هذا من دواب البحر لـيس من دواب البر، أو من دواب البر ليس من دواب البحر). ((تهذيب الكمال في أسماء الرجال)) (١/ ٤٥٨).

أهم كُتُب علوم الحديث (سواءٌ ما ضَمّنَه الأئمةُ كُتُبَهم ، أو ما أُفرِدَ بالتصنيف)

- منه جُمَلٌ و قواعد نقلها بعض المصنّفين عن أئمة الحديث مثل :

ما نقلَه ابنُ خزيمة في ((صحيحه)) عن مُحمد بن يحي الذُهلي في معنى (جهالة الراوي)

و ما نقلَه ابن رجب الحنبليُّ في شرحه ل: (عِلل الترمذي) الصغير من كلام : أحمد بن حنبل ، و ابن معين و يعقوب بن شيبة و غيرهم من أئمة العلم.

- و منه ما كُتِبَ ضمن مصنفات علم (أصول الفقه) مثل :

ما كتبه الإمام الشافعي من قواعد في كتابيه : (الرسالة) و (جِماع العلم)، و ما كتبه ابنُ حزمٍ في كتابه (إحكام الأحكام)

- و منه ما كُتب في علم الحديث خاصّة ، مثل :

– جُزء صغير للحُميدي أبي بكر عبدالله بن الزبير (ت ٢١٩) ، من رواية بِشر بن موسى عنه .نثره الخطيبُ البغدادي في كتابه (الكفاية)

– ما ذكره الإمامُ مُسلم بن الحجّاج (ت ٢٦١) من قواعد نفيسة و أمثلةٍ مُنتقاة في علوم الحديث من خلال :

١- مُقدّمة كتابه (الجامع الصحيح)

٢- كتاب (التمييز) و هو خاصٌّ بقواعد علم (عِلل الحديث)

أهم كُتُب علوم الحديث (سواءٌ ما ضَمّنَه الأئمةُ كُتُبَهم ، أو ما أُفرِدَ بالتصنيف)

–أبو داوود السجستاني (ت ٢٧٥) في كتابٍ صغير له : (رسالة أبي داوود لأهل مكة) مُبيّنًا منهجه في كتابه (السُّنن)

–أبو عيسى الترمذي (ت ٢٧٩) و قد كتب جُملا و قواعد في علوم الحديث في آخِرِ كتابه : (الجامع) سمّاه : (العِلل) و نقل فيه عن كبار أئمة الحديث ، و له كتابٌ آخر عن عِلل الحديث يسألُ فيه شيخَه البخاريَّ عن بعض الروايات و الرواة يُسمّى : (العلل الكبير) تمييزًا له عن كتابه (العِلل) الموجود بآخِرِ كتابه (الجامع) .

–رسالة بعنوان : ((الفرق بين التحديث و الإخبار)) لأبي جعفر الطحاوي المصري (ت ٣٢١) و هي موجودة في كتابه : ((شرح مُشكِل الآثار)).

– مُقدّمات كتاب : ((الثقات)) و كتاب ((المجروحين)) و كتاب : ((الصحيح)) الثلاثة لأبي حاتم ابن حِبان البُستي (ت ٣٥٤) و هي نفيسة في قواعد النقد .

–مقدّمة كتاب : ((معالم السُّنن)) لأبي سليمان الخطّابي (ت٣٨٨).

–مقدمة كتاب : ((مُختصر الموطأ)) لأبي الحسن القابسي (ت ٤٠٣).

–مقدمة كتاب : ((الإرشاد)) لأبي يعلى الخليلي (ت٤٤٨)

–مقدمة كتاب : ((التمهيد)) لأبي عمر ابن عبد البرّ الأندلسي (ت٤٦٣)

–كتاب : ((المدخل إلى السُّنن الكبرى)) لأبي بكر البيهقي (ت ٤٥٨)) و إن كان الجُزء الخاص بعلم الحديث مفقودا من الكتاب

و ما كُتِب في علوم الحديث خاصّة ، فمنه :

- كتاب : ((المحدّث الفاصل بين الراوي و الواعي)) لأبي محمد الرَّامهرمزي (ت : ٣٦٠)

- كتاب : ((معرفة علوم الحديث)) لأبي عبدالله الحاكم (ت٤٠٥) صاحب كتاب : المستدرك

- كتاب : ((المستخرَج)) على كتاب الحاكم تصنيف : أبي نُعيم الأصبهاني (ت٤٣٠) صاحب كتاب :حلية الأولياء ، و صنّف كذلك : ((علوم الحديث)) ... و لا أعلم وجودهما مطبوعَين.

- كُتب الخطيب البغدادي أحمد بن علي بن ثابت (ت٤٣٦) ، من أهمها : ((الكفاية في أصول علم الرواية)) ، و ((الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع))

- كتاب : ((الإلماع إلى معرفة أصول الرواية و تقييد السماع)) للقاضي عياض (ت٥٤٤)

- رسالة صغيرة : ((ما لا يسع المحدِّث جهله)) لأبي حفص الميانشي (ت ٥٨٣)

- كتاب : ((معرفة أنواع علم الحديث)) المعروف باسم ((مُقدّمة ابن الصلاح)) للحافظ أبي عمرو ابن الصلاح (ت ٤٦٣) و هو أحد أخصّ و أجمع مراجع علوم الحديث ، و صار أصلا لمن جاء بعده ممن كتب في علوم الحديث ، فمنهم من : نَظمَه ، و منهم من اختصره ، و منهم من استدرك عليه ، و منهم من شرحه .

و ما كُتِب في علوم الحديث خاصّة ، فمنه :

- كتاب : ((المُوقظة)) للذهبي (ت ٧٤٨) و كتابه هذا نفيسٌ في قواعد علوم الحديث ، و هو تهذيب و اختصار و صياغة جديدة لكتاب : ((الاقتراح))لابن دقيق العيد، مع تعقُّبات و فوائد متميزة ، و تطبيقات عمليّة فإن الذهبي إمام في الحديث جمع في كتابه بين القواعد و التطبيق.

- كتاب ((نُخبة الفِكَر في مصطلح علم الأثر)) للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢)، و شرحَه في كتابه ((نُزهة النظر في توضيح نُخبة الفكر)) ، و كان لهما أثر كبير حيث صارا كتابيْن أساسين كمدخل لدراسة علوم الحديث في المدارس العلمية و المعاهد و الجامعات و حلقات العلم .